

دار التوحيد
لتحفيظ القرآن الكريم

الملزمة الخامسة
من برنامج التدبر

وقفاك

إيمانية وتربوية

حول سورة مريم

وقصة عيسى عليه السلام

جمع وإعداد
د. نخله السبيّ

حقوق الطبع محفوظة لدار التوحيد لتحفيظ القرآن الكريم

التعريف بالسورة :

أ- سورة مكية نزلت بمكة قبل الهجرة في السنة الرابعة من البعثة .

ب-فضائلها :

١- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : " بني إسرائيل و الكهف و مريم و طه و الأنبياء هُنَّ من العِتاق الأول ، و هُنَّ من تلاميذ " (١) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه المتحدث بهذه الكلمات هو من أعلم الصحابة بكتاب الله قال عن نفسه : [و الله الذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا و أنا أعلم أين أنزلت ، و إلا أنا أعلم فيما نزلت ، و لو أعلم أن أحداً أعلم بكتاب الله مني تناله المطيُّ لآتيته] (٢)

و هذا يدلُّك على غزارة علم هذا الصحابي بكتاب الله و أنه إذا تكلم عن القرآن فكلامه له وزنه و اعتباره و مكانته ، زكاه النبي صلى الله عليه وسلم بتزكية عظيمة حين استمع لقراءته فقال : " من سرّه أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد " (٣) ...

قال عن هذه السور الخمس [هُنَّ من العِتاق الأول و هُنَّ من تلاميذ] ..

العِتاق : جمع عتيق و هو ما بلغ الروعة و الحسن و الجودة، قال البيهقي : [العرب تجعل كل شيء بلغ الغاية في الجودة عتيقاً ، يريد تفضيل هذه السور لما تتضمن من ذكر القصص و أخبار الأنبياء عليهم الصلاة و السلام ، و التلاد ما كان قديماً من المال ، يريد أنها من أوائل السور المنزلة في أول الإسلام و أنها من أول ما قرأه و حفظه من القرآن و الله أعلم] (٤).

كلامه رضي الله عنه يشير إلى عظمة و نفاسة هذه السور عنده و أنها من حفظه القديم النفيس ..

(١) رواه البخاري - تفسير سورة اسرائيل_ (٢) صفة الصفوة .

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده .

(٤) شُعب الإيمان للبيهقي ٤٧٦/٢ نقلاً عن التفسير الموضوعي ٤/٤٠٥ .

١

أيضاً مما جاء في فضلها ما روته أم سلمة رضي الله عنها و كانت ممن هاجر إلى الحبشة بعد أن ضيق المشركون على المسلمين فيها و بلغوا ما بلغوا من تعذيبهم و النيل منهم ؛ فأذن لهم رسول الله بالهجرة إلى الحبشة رجاء أن يسلم صحابته من هذا التعذيب وقال : " إن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، و هي أرض صدق فهاجروا حتى يجعل الله لكم فرجاً و مخرجاً مما أنتم فيه " فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله إلى الحبشة مخافة الفتنة و فراراً إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة في الإسلام .

وبعد أن هاجروا دار حوار طويل بين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه الذي تحدث باسم المهاجرين و بين النجاشي ملك الحبشة فقال النجاشي : [هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقرأ عليه جعفر رضي الله عنه صدر سورة مريم { كهيعص } .. قالت أم سلمة : فبكى و الله النجاشي حتى أخضَلَ لحيته ، و بكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ،

ثم قال : إن هذا و الذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدة

فأسلم النجاشي و هداه الله بعد سماعه لقراءة جعفر بن أي طالب رضي الله عنه لهذه السورة (١) .

ومما رُوي عن النجاشي أنه حين انتهى إليه خبر وقعة بدر و انتصار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها أرسل إلى المسلمين المهاجرين في بلاده ، فلما دخلوا عليه إذ هو قد ليسَ مَسْحاً ، و قَعَدَ على التراب الرماد فقالوا له : [ما هذا أيها الملك ؟؟] فقال : [إنا نجد في الإنجيل أن الله سبحانه إذا أحدث لعبده نعمة و جَبَّ للعبد أن يُحدث الله تواضعاً و إن الله قد أحدث إلينا و إليكم نعمة عظيمة و هي أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم بلغني أنه التقى هو و أعداؤه بوادٍ يُقال له بدر و أن الله قد هَزَمَ أعداءه فيه و نَصَرَ دينه [(٢) .

و لما مات النجاشي صلى الله عليه رسول الله و استغفر له و نعاه إلى الناس في اليوم الذي مات فيه ، و قد رُفِعَ إليه سريره في أرض الحبشة حتى رآه صلى الله عليه وسلم و هو بالمدينة فصلَّى عليه " (٣) .

(١) رواه ابن اسحاق في السيرة - ابن كثير في البداية و النهاية - الروض الأنف ص١٢٤-١٣٠

ج - مقصود السورة :

٢

المتأمل في سورة مريم يلاحظ تكرار اسم الله [الرحمن] و كلمة [رحمة] كثيراً في هذه السورة مما يدل أن هذه السورة هي سورة الرحمة كلها رحمة.

القارئ و هو يعيش مع هذه السورة يُعَين رحمة الله تتجلى في آياتها و قصصها و مشاهدتها .. بدءاً من رحمة الله بعبده زكريا ، ثم رحمة الله التي ظلت السيدة مريم و شملتها في كل لحظة من لحظات حياتها رحمة أبي الأنبياء و سيد الحنفاء إبراهيم عليه السلام بوالده .

أيضاً يعاين رحمة الله التي تتجلى في إمهاله للعصاة وفتح باب التوبة لهم : { فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) } سورة مريم .

ورحمة الله في صبره على المشركين مع إقامة الحجج و دحض الشبه ثم رحمة الله بعباده المؤمنين حين ينتشر حبهم وودهم بين العباد تكريماً لهم : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) } سورة مريم . ، ورحمته بهم حين ينجيهم من الصراط فيعبرونه و يدخلهم الجنة: { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِّيًّا (٧٢) }.

ورحمته بهم حين يأتونه وفوداً يوم القيامة ومن شأن الوفود أن يُحتفى بهم و يقابلون بالتهاني و البشائر ، و يُتحفون بالجوائز و المكرمات و قد وفدوا على أكرم الأكرمين ، و قدموا على الرحمن إخواناً متحابين و هم في ضيافة أرحم الراحمين [١]

إذاً السورة تفيض و تفيض بالرحمة لكنها تحتاج إلى قلب يتلمس هذه الرحمة ، و يفتش عن مواضعها و ينظر في أسبابها و يعرف كيف تُنال لعله أن ينالها .

و القرآن في كل سورة يحتاج إلى قلب قارئه ، فإذا قرأ القارئ و كان قلبه مفتوحاً و جاءت الآية على جرحه تسمرت قدماه !! لا يستطيع أن يتجاوزها و هذا معنى كلام ابن مسعود رضي الله عنه حين قال :

[القرآن إذا وقع في القلب نفع]

(١)التفسير الموضوعي - بتصريف - ص ٤٧٩

حينها سيغرف من بركة هذا الكتاب و البركة هي الخير الذي لا ينتهي ، و بركة القرآن عجيبة لا تحد و لا تعد و لا تُحصر ،،، فمن وجدَ في حياته مشقةً أو عسراً أو كدراً أو ضيقاً فعليه بهذه السورة ، سورة الرء ٣ ن يرحمه وصدق الله إذ يقول:

{ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } سورة الإسراء.

وقفه مع اسم الله الرحمن :

إذا أردت أن تتعامل مع الله لأبد أن تعرف من هو الله ، لأبد أن تعرف ربك معرفةً تقودك إليه ، تسوقك إليه ، تقربك منه و كما قال ابن رجب رحمه الله [كنز المؤمن ربه]، أي أن الغنيمة العظمى و الكنز الأكبر إذا عرفك الله بأسمائه و صفاته و استقرت هذه المعرفة في قلبك هو القرب و أشرف قرب .

هذا هو العيش الرغيد و النعيم المعجل الذي يناله العبد في الدنيا قبل الآخرة ، هذا هو أحلى و أذ المقامات التي يتقلب فيها وهو ما زال يمشي على الأرض.

هذا هو الفرح و السرور و البهجة ، الذي لا يشبهها شيء من نعيم الدنيا البتة كما يصوره الشيخ حمد بن عتيق في منظومته :

ومن ذاك إحساس المحب لقلبه *** بضربٍ و تحريكٍ إلى الله دائماً

فمن عرف الله أحبه بصدق ، ووجد قلبه منجذباً إليه انجذاباً لا ينقطع في ليله و نهاره وفي حله وترحاله و يقظته و منامه ، حين يمسي وحين يصبح وهو يسعى في مرضيه ، يطلب محابه ، يسارع ، يسابق، هذا ما يُثيره الحب في قلب صاحبه .

ما معنى اسم الله (الرحمن)؟

إذا عرفت أن معنى اسم الله [الرحمن] : أي ذو الرحمة الواسعة الشاملة ، التي تسع جميع المخلوقين مؤمنهم و كافرهم انسههم و جنهم، برهم و فاجرهم ، صغيرهم و كبيرهم ما من مخلوق إلا وهو يتقلب في رحمة الله أثناء الليل و أطراف النهار ..

- العاصي و هو يعصي يرتكب معصيته متلبساً بها مازالت رحمة الله تحيط به ، ما زال ينتفس ، الرئة تعمل ، الكلى تعمل ، الكبد تعمل ، أعضاؤه كلها تعمل ... مازال الله يرحمه .

- الجنين في بطن أمه وهو في ذلك المكان المنقطع المظلم تحفه رحمة الله ويأتيه غذاؤه .
- الثعالب (فرخ الغراب) إذا خرج من البيضة خرج أبيضاً لا يشبه أبواه فيتركانه و ينكرانه لكن الله برحمته يسوق لهذا الثعالب رزقه وهو في عشه ، يسوق له نوع من الدود يقف على منخاره فيلتقمه و يقات عليه حتى يسود ريشه فيرجع إليه أبواه فيألفانه و يلقطانه الحبّ ...

من الذي ساق و رحم و دبّر و رزق ^٤ رحمن الرحيم .. الذي جعل الرحمة مائة جزءاً أمسك عنده تسعاً و تسعين جزءاً منها ليوم القيامة ..

و أنزل في الأرض رحمة واحدة هي التي بثها بين عباده و مخلوقاته، بين الجن و الإنس و البهائم و الهوام ، فيها يتعاطفون ، و بها يتراحمون ، و بها تعطف الوحش على ولدها - حتى الدابة ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه ..

دعنا أيها القارئ نعيش مع هذه الأم .. عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سبيٌّ فإذا امرأةٌ من السبي تحلب ثديها تسقي ، إذا

وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها و أرضعته ، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم : " أترون هذه طارحة" ولدها في النار؟؟ قلنا : لا و هي تقدر على أن لا تطرحه فقال : " الله أرحمُ بعباده من هذه بولدها " (٢).

أم فقدت رضيعها في السبي ، تحلب ثديها أي امتلأ ثديها بالحليب ، ولا يخفى عليك الألم الذي تشعر به الأم من تجمع اللبن في ثديها ..

اجتمع على هذه الأم ألم الجسد و هو تحلب اللبن في ثديها ، و ألم نفسي - وهو الأشد - بفقدتها لرضيعها .

(١) صحيح البخاري - كتاب الأدب - الجزء العاشر.

(تحلب ثديها تسقي) < يقول بعض الشراح لهذه العبارة من الحديث : [أنه من شدة الألم الذي في هذه المرأة ما عادت تصبر و كأنها فقدت عقلها فأبي طفل رضيع تجده في السبي تأخذه و تحتضنه و كأنه ابنها فتعطيه شيئاً من لبنها ليخف الألم ثم تعطي طفلاً آخر و هكذا .. حتى وجدت ابنها .. (فألصقته بصدرها) >> و تأمل لم يقل حضنته ، أو وضعتة أو حملته ، قال : [ألصقته بصدرها] و هذا أشد ما يكون من الضمّ و الحضن و الرحمة و الشفقة بطفلها فأسقته لبنها ..

أمام هذا المنظر المعبر و المؤثر و رسولنا صلى الله عليه وسلم أعظم مربى لأصحابه سألهم : " أترون أن هذه الأم - مع كل هذه المحبة العظيمة - يمكن أن تلقي بطفلها هذا الذي ألصقته إصاقاً بصدرها !! أيمن أن تطرحه في النار ؟

فما كانت الإجابة البديهية منهم : أن لا ..

قال صلى الله عليه وسلم - كما جاء في إحدى الروايات - ولا الله بطارح حبيبه في النار .. الله أرحم بعباده من هذه بولدها .

مهما قدرت أن إنساناً فيه رحمةً بك و عليك فاعلم يقيناً أن رحمة الله بك أكبر من أي رحمة ..

و أعظم من أي رحمة .. و أوسع من أي رحمة ..

فإنه قال عن نفسه { وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } ، { وَ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ } و في الحديث : " إن رحمتي تغلب غضبي "

الرحمة هي باب الله الأعظم الذي من طرقه فتح له ..

و هو أوسع الأبواب على الإطلاق .

عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان يقول في دعائه لربه : [اللهم إن لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك فإن رحمتك أهلاً أن تبلغني ، رحمتك وسعت كل شيء و أنا شيء فلتسعنني رحمتك يا أرحم الراحمين] (١)

(١) نضرة النعيم - الرحمة .

فإذا امتلأ الإنسان بمعنى هذا الاسم - رحمة الله هي أوسع الرحمات كان هذا أكبر معين له على العمل و أكبر معين - يجب على ربه و الطمع فيه و طرق باب رحمته ..

ومن ثمَّ يستحيي أن يظنَّ أن رحمة ربه قد عجزت عن ذنوبه !! مهما كانت و مهما عظمت و مهما كثرت و لو عصى الله بعدد أنفاسه التي خرجت من صدره فرحمة الله أكبر من ذنوبه ..

تأمل لكلمات الحجاج و هو يحتضر - كم قتل هذا الرجل و كم سفك من الدماء و كم و لكن لما جاءت سكرات الموت و زفراته و غصة الموت ومرارته بدأ يستدر رحمة الله عليه و لم يبق أمامه إلا أن يؤمل في ربه ثم قال : [يا رب ارحمني فإنهم يظنون أنك لا تفعل] .. ما أعظمه من توسل ! و ما أعظمه من رجاء ! خاصة إذا قاله العبد و هو مقبلٌ على ربه ..

أردتُ من هذا الاستطراد في الكلام عن رحمة الله أن نستصحب هذه الرحمة و نحن بصدد تدبر سورة الرحمة فنعيش في جو السورة ، ونتشبع بهذه الرحمة ، و تظهر آثارها علينا فنفيض بالرحمة على كل من حولنا الكبير و الصغير ، القريب و البعيد ، الذكر و الأنثى و النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " من لا يرحم الناس لا يرحمه الله " متفق عليه ، " إنما يرحم الله من عباده الرحماء " (١) .

وقال عليه الصلاة و السلام : " من يرحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله يوم القيامة " (٢) .

وهذه هي ثمرة العلم .. العمل .

و الإحسان للخلق و رحمتهم هو عملٌ تستدرُّ به رحمة الله بك ..

(١) صحيح البخاري .

(٢) صحيح الجامع ٦١٣٧ .

رحمة الله تعالى بزكريا ويحي عليهم ٧٤

- زكريا عليه السلام نبي من أنبياء بني إسرائيل ، كان يعمل بالنجارة كما ثبت في صحيح مسلم أن نبينا صلى الله عليه وسلم قال : " كان زكريا نجاراً " ؛ أي أنه كان يأكل من عمل يده ، وهذا وصفٌ ظاهر في الأنبياء ، داود عليه السلام كان حداداً يصنع الدروع بالرغم أنه أوتي ملكاً عظيماً ..
- موسى عليه السلام عمل أجيراً عند صاحب مدين ، يرعى له الغنم عشر سنوات ، نبينا صلى الله عليه وسلم رعى الغنم على قراريط لأهل مكة .
- وقد قال عليه الصلاة والسلام : " ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده " (١) .
- فمن مروءة أنبياء الله و شهامتهم و عفتهم و عزة أنفسهم و كمال أخلاقهم كانوا يرفضون أن يكونوا عالة على غيرهم في كسبهم و رزقهم و أموالهم .
- تزوج زكريا عليه السلام امرأة صالحة يُقال أن اسمها (إيشاع) و لم يُرزق منها بالذرية . لما قارب التسعين من عمره ، و انتشر الشيب في شعره ، و وهن عظمه و جسده ، وبلغ من الكبر عتياً (وهي السن التي تبيس فيها العظام والمفاصل و تجف)

دعا ربه ، نادى ربه { إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) } سورة مريم ، تأمل حال هذا النبي بالرغم من كبر سنه إلا أن صلته بربه لم تنقطع .. نادى ربه نداءً فيه استعطاف و استرحام و استجداء ، نداء فيه ود ، و كلما كان الدعاء بهذه الصورة و بهذا الخضوع و الخفاء و بتلك الإستكانة ، كان أحب إلى الله عز وجل و أقرب للإجابة .

قال قتادة [إن الله يعلم القلب التقي و يسمع الصوت الخفي] (٢)
فإذا قال العبد : يارب يا رب يا رب قال الله : لبيك لبيك لبيك .

(١) رواه البخاري .

(٢) التفسير الموضوعي ٤/٤١٦ .

تأمل لنداء أيوب عليه السلام و هو في ٨ : { وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) } الانبياء ، لم يعل يا رب ذاب جسدي ، و شئت جوارحي ، وفقدت مالي و أهلي ، وفرّ الناس مني كل الذي قاله (مسني الضر) — و المس : أدنى الإصابة ، أقلها أخفها يعني مجرد مس و كأنه شيء بسيط قليل و هذا المعنى فيه تضرع ليس فيه جزع ولا تسخط و لا شكاية من البلاء الذي نزل به . ثم انظر بعدها ماذا قال ! { وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } ، تعريض بالحاجة و ليس طباً صريحاً لها ، وقد يكون التعريض في بعض الأحيان أقوى في استئزال المرحمة بك .

فيصبح معنى الكلام – يا رب إني مسني الضرّ و أنت موصوف بالرحمة المطلقة ،
أنت رحمن الدنيا و الآخرة فكانت النتيجة :
{ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى
لِلْعَابِدِينَ (٨٤) {الأنبياء .

يونس عليه السلام أطبقت عليه الظلمات و أصبح في ضيق فوق ضيق فنادى ربه نداءً
اخترق كل هذه الظلمات و اخترق السبع الطباق { لا إله إلا أنت سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ
الظَّالِمِينَ (٨٧) {الأنبياء . أنت يارب ربّ عظيم منزّه عن كل ظلم و عن كل عيب أو نقص
، و أنا عبدك الفقيرُ الظالم لنفسي من كل وجه ، وهذا اعترافي بين يديك { لا إله إلا
أنت سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ { فكانت النتيجة : { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ
وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) {الأنبياء .

إذا تعلمت أن تقول يا رب بأدب فإن الله سيغيثك

دعاء زكريا عليه السلام و بقية الأنبياء يُعلمك أنه لا بد أن يكون لك جسراً ممدوداً مع
الله عز وجل ، هذا الجسر هو الدعاء في ليل أو نهار في سفر أو إقامة ، في حج أو
عمرة ، في صلاة أو سجود ..
المهم أن يبقى هذا الجسر ممدوداً إياك أن تقطعه، فإن العبد إذا انقطع لله تكفل الله به.

{قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤)}
انظر لحسن الظن و الثقة التي كانت عند زكريا و هو يدعو ربه !! بالرغم أنه في قمة العجز بالأسباب

(بلغ من الكبر عتيا ، شاب شعره ، ووهن عظمه ، وزوجته عاقر لا تلد) بمعنى أنه لا يملك مؤهلات الطلب (أن يطلب ولداً) بمقاييس الأسباب فالأمر مستحيل وقوعه .
إلا أن زكريا عليه السلام طمِعَ في ربه ، و عَظُمَ يَقيئُهُ ، و قطع النظر في كل الأسباب و لم يبقَ في داخله و قلبه و ذراته و خلجاته إلا أن ربه يُعطي بغير حساب ، و يعطي بدون أسباب ، و يُعطي هبةً من عنده و لو عزت أو فُقدت الأسباب .

ومن عظم يقيئه بربه لم يكله لا لنفسه و لا للأسباب ..

يا من تبحث عن الرحمة و تفتش عن أسبابها و أنت تقرأ هذه السورة انظر إلى حال هذا النبي الكريم كيف استدر رحمة ربه بالدعاء ، ثم جمع مع الدعاء طمعاً و قوة يقين و حُسن ظن بربه ..

و الدعاء سمة مشتركة بين كل الأنبياء أثبت لهم القرآن ما يُقارب ن ستين دعوة ، بينهم و بين الدعاء صلة وثيقة بينهم و بين الدعاء ديمومة و استمرارية لا تنقطع ..
يدعون الله في كل آن و في كل حين و هذا من أعظم الدلائل على تحقيق التوحيد .

العبد كلما تيقن أن الله قادر على كل شيء أكثر من دعائه و الإلحاح عليه و طرق بابهِ و باب الله مفتوح لا يُغلق و لا يُفل عليه . ومدد الله مازال مستمراً لعباده { إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤) } سورة ص ، و أَلطاف الله على أوليائه لا تتصورها العقول و لا تعبر عنها العبارات { اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ .. (١٩) } سورة الشورى ، و الكفاية تأتي على قدر اليقين و القرآن يُعلمنا أن نطمع في ربنا { وَمَا لَنَا لِمَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) } سورة المائدة ، و التوحيد يعلمنا أن نطمع في ربنا و لا نياس أبداً و أن نبقى على ثقةٍ برحمة الله و انتظار لعطائه لا نتزعزع و لا نضعف و لا نفقد الثقة و لا نستبطي الإجابة فالفرج قريب و العطاء آت ..

و من يُكثِر طرق الباب يُفتح له ..

١٠

فالدعاء هو العبادة ، وليس شيء أكرم على الله من الدعاء كما أخبر بذلك رسولنا صلى الله عليه وسلم [و أعجز الناس من عجز الدعاء] .

و كما يقول العلماء : الدعاء يقرب ما كان بعيداً ، ويبسر ما كان عسيراً ، و يفتح ما كان مستغلقاً

• { يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا } (٧)

انظر إلى آثار رحمة الله إذا أراد أن يرحم عبده ، ، تأمل إذا فتحَ الله لك باباً ليرحمك فإنه لا يستطيع كائناً من كان من البشر أن يُغلقه عليك ..

استجاب الله دعاء زكريا ..

ناداه باسمه [يَا زَكَرِيَّا] و هذا شرف و أيُّ شرف ؟!!؟!! الله جلّ جلاله ملك السموات و الأرض ينادي عبده ويذكره باسمه يازكريا! ، ، لذلك لما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بن كعب رضي الله عنه : " أن الله أمرني أن أقرأ عليك } لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَّفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) { قال أبي : وسماني لك؟ ، قال : نعم ، فبكى أبي " (١) . وحق له أن يبكي فرحاً بفضل الله عليه .

[إِنَّا نُبَشِّرُكَ] : إِنَّا الضمير الدال على العظمة و العظيمُ إذا امتن امتنَّ بعظيم .

نبشرك : لم يقل نستجيب لك ، نعطيك ، نحقق لك و إنما قال : نبشرك و لفظ البشري بذاته لفظ يوقع فرحاً و سروراً و انبساطاً و انشراحاً في النفس .

بغلام : حقق الله له ما يريد طلب غلاماً فأعطاه الله مطلوبه و حتى يزيده الله من فضله و كرمه سمّاه له { بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ } و لاشك أن تسمية الله للمولود شرف ثاني ناله نبي الله زكريا ، فإذا كان الآباء قاموا بتسمية أولادهم فنحن قد سميناه لك يا زكريا .

و تأمل الاسم [يحيى] و كأنه يشير أن هذا المولود سيحيا حياة طيبة ، حي في قلبه لأن الله أحيا قلبه بالإيمان و الطاعة و النبوة ، و سيحيا به هذا الدين ، و يحيا به الناس لأنه سيدلهم على ربهم و خالقهم و يحيي الله به قلوبهم .

(١) رواه البخاري و مسلم .

”

ثم هو يُقتل شهيداً و بالشهادة هو حيّ ، فكأنه يحيا دائماً (١).

[لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا] لم نجعل له شبيهاً من أهل عصره في أحواله و صفاته و اسمه . هذه هي البُشرى التي بُشر بها زكريا عليه السلام ، بعدها طلب زكريا من ربه علامة تدله على حصول الحمل ليتعجل السرور و يحتفي و يحتفل بهذا الحدث الجليل ..

{ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) }

العلامة هي امتناعه و حبسه عن الكلام لمدة ثلاثة أيام بلياليهن فلا يتكلم إلا بالإشارة و الإيماء ، أي أنه سيُحبس لسانه عن الكلام بغير إرادته بل بقدره الله عز وجل إلا عن ذكر الله و تسبيحه ..

دعنا أيها القارئ نتأمل هذه العلامة التي اختارها الله لزكريا عليه السلام [الصمت] و لذلك حكمة بليغة ..

الصمت فيه وقفة مع النفس ، و هدوء البال ، و سكينه الفؤاد ، و اجتماع القلب ، و صفاء العقل ، و زكريا كان في حاجة إلى ذلك لأنه أعطي الولد بعد أن لم يكن ينتظره فقد بلغ الكبر و كانت امرأته عاقراً فكان يحتاج إلى هدوء النفس (٢)

و نأخذ فائدتين تربويتين من هذه العلامة :

- ١- أن الإنسان كلما تخفف من فضول الكلام مع الناس فهذا خير ، وهذا هو الأصل، قال صلى الله عليه وسلم "من صمت نجا " ، " أمسك عليك لسانك " وقال : " طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه " فالصمت و حفظ اللسان فضيلة تُطلب .
- ٢- الإمساك عن الكلام في وقت الحدث أو المشكلة أو عند حصول الفتنة ، هذا يدل على حكمة و عقل صاحبه .. أبو بكر الصديق رضي الله عنه في حادثة الإفك التي اتُهمت فيها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هي ابنته و عرضه و شرفه و هو الذي رباها و مع ذلك التزم الصمت وقت الضجيج و تناقل الناس الخبر و نشره و إذاعته ، وهذا يدل على بعد النظر و الحكمة و رجاحة العقل و رسوخه فالتريث و الأناة و عدم العجلة من أركان الحكمة . [تراجع ملزمة تأملات في سورة لقمان]

(١) [خواطر الشيخ الشعراوي بتصرف] . (٢) [التفسير الموضوعي سورة مريم]

۱۲

{ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۗ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۗ وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) }

طوى السياق ذكر ولادة يحي عليه السلام ثم نموه و ترعرعه حتى وصل إلى سن الطلب و التحصيل فجاءه الأمر الصريح المباشر { يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ } خذ التوراة بجد و اجتهاد و عزم و حرص على فهمها و العمل بها و دعوة الناس إليها .

وفي هذا تربية لنا نحن أيضاً أن نأخذ القرآن بقوة

لأن القرآن لا يحمله إلا أولو القوة و أولو العزم من الناس {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) } سورة المزمل .

والمطلوب منا أن نعظم هذا الكتاب و نعظم أوامره ، نفهم ما فيه ، ونعمل به ، نتعاهده، نتلوه، لا ننقطع عنه .

القرآن نور فإياك أن تقطع نفسك عن مصدر هذا النور ومادته فهو يغذي الروح التي بين جنبيك، الله يقول: {..وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا }^ع

وقلب المؤمن كما جاء في وصفه قلبٌ أجرد أي قلبٌ حي فيه سراج مزهر ينير بصاحبه وهذه الإنارة إنارة دائمة، هذا النور يُغنيه عن كل شيء ويُغنيه عن كل أحد، يرتحل به وهو مازال مقيماً في دنيا الناس، يربأ أن يعيش مع الهمل أو أن يكون في ذيل القافلة.

هذا النور وهذا السراج هو نور الوحي ، نور القرآن وكلما ازداد أخذه للقرآن وعمله بالقرآن ازداد نوراً حتى يصبح كالشمس يشعُّ نوراً ، ينفع نفسه ومن حوله وكل من جالسه .

ترجم ابن كثير -رحمه الله- في كتابه البداية والنهاية: لعابدة من عابدات الشام كانت تأمر حفيدها بطاعة الله،قال حفيدها: مال جدارٌ لنا ،فنتبعت جدتي ليلاً فوجدتها قد خطت في ورقة شيئاً فغرزته في الجدار،ومكثنا سنوات والجدار مائل ولم يسقط ثم ماتت جدتي فذهبتُ لأنظر في تلك الورقة فما أن نزعنا الورقة حتى خرَّ الجدار ساقطاً وسقطت الورقة فإذا مكتوب فيها: {إِنَّ اللَّهَ يُمَسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا}.

الله أكبر ما أعظم المرء حين يستنير قلبه بنور القرآن ، ويتعامل بفقهِ وبصيرة مع القرآن ولكن صدق الله {يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ}، فإياك إياك أن تقطع نفسك عن هذا النور واستمع لهذه الآية و ألق لها قلبك وسمعك { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) } سورة الحديد.

ما هو الأمر الذي طال عليهم ؟؟ هـ ١٣ بينهم وبين كتاب ربهم فماذا كانت النتيجة؟؟ { فقتت قلوبهم } لا قسوة بالقلب إلا بالانقطاع ، فاحذر من الانقطاع عن كتاب الله و احرص أن يكون هذا الكتاب صاحباً و مؤنساً لك يومياً بأي صورة أمكنتك [تقرأه - تسمعه - تتدارسه] المهم أن يمر هذا القرآن على سمعك و يتسرب نوره إلى قلبك فيشرق النور بداخلك و يوصل المصباح لأعمقك و تُطرد الظلمة من حناياك ...

{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۗ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۗ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۗ نُورٌ عَلَى نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) } سورة النور

جاء في صحيح البخاري - كتاب التعبير- تلك الرؤيا التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم لما انطلق به ملكان فكان من ضمن ما رأى [رجل مضطجع و إذا آخر قائم عليه بصخرة و إذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيتلغ رأسه كما كان فيعود فيفعل به مثل ما فعل ...] الحديث ، فلما سأل رسولنا جبريل عليه السلام عن هذا الرجل قال : " إنه الرجل يأخذ بالقرآن فيرفضه و ينام عن الصلاة المكتوبة .

هذه صورة أخرى من صور الانقطاع عن القرآن ، وهي لمن آتاه الله القرآن و علمه إياه و هو أشرف العلوم ثم نام عنه بالليل و لم يقم به ، و غفل عنه بالنهار فلم يعمل به فلم يستفد و لم ينتفع من هذا النور الذي يحمله في صدره .

و القرآن كتابٌ عزيز لا يبقى في صدر من يهمله ، إذا أهملته و تركته خلفك و لم تهتم به و لم تتعاهده و لم تقم به و لم تعمل به **غادرك و رفضك ..**

قال أحمد بن أبي الحواري : [سمعت ابن عيينة يقول : " لا تبلغون ذروة هذا الأمر حتى لا يكون شيء أحب إليكم من الله عز وجل فمن أحب القرآن فقد أحب الله عز وجل "] (١) .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : " لا يسأل عبد عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن فإنه يحب الله ورسوله " (٢) . وقد مدح الله عباده كما جاء في آخر سورة الفرقان { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيئُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) } هذا الصنف من البشر يحملهم القرآن الذي في صدورهم إذا جنّ عليهم الليل أن يصفوا أقدامهم بين يدي ربهم تالين لكتابه راكعين ساجدين متذللين ، وكأن راحتهم ليست في النوم و إنما راحتهم أن يبيتوا لربهم سجداً و قياماً تتجافى جنوبهم عن المضاجع و كأن جفاءً حصل بينهم وبين فرشهم !!!

(١)،(٢) رسائل ابن رجب ٢٠٤/١ .

حظهم من الليل كبير و من يخدمه ^{١٤} (من خاف أدلج و من أدلج بلغ المنزل)

شرفاً أن يقيمك الله من فراشك لتقف بين يديه..

الملائكة تتسابق على البيت الذي فيه قائم بالليل يُصلي ، البرّ يتناثر عليه من عنان السماء حتى مفرق رأسه ، و تهبط الملائكة لتستمع إلى قراءته ، فإذا جلس و دعا أمنت على دعائه و إذا انصرف قالت نم قرير العين مسروراً " (١)

قال صلى الله عليه وسلم: " من قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين و من قام بمائة آية كُتب من القانتين و من قام بألف آية كُتب من المقنطرين " (٢)(٢) رواه أبو داود .

وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا ركعتين جميعاً كُتب من الذاكرين و الذاكرات " (٣)

صلاة الليل...

مفتاح لخير كثير و أجرٍ عظيم ..

ليستمطر بها العبد توفيق ربه و مدده و إعانته ..و الموفق من وفقه ...

{ وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) } من الله على يحيى منذ صباه بالحكمة و المعرفة و
حُسن التدبير و الحزم و العزم في الأمور ..

{وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً^ط وَكَانَ تَقِيًّا (١٣)}

حنانٌ رباني أودعه الله في قلب يحيى عليه السلام ، ففما معه و ترعرع و أزهر
و أነع و جمع بين الجد و الحزم و بين الرفق و الحنان .

(١) أثر ورد عن محمد بن قيس [كتاب قيام الليل للمروزي].

(٢)،(٣)رواه أبو داود.

زكى الله نفسه و طهره و رزقه التقوى ، جعله باراً بوالديه محسناً إليهما لا متكبراً و لا
جباراً و لا متعالياً مُحسناً لكل الخلق ١٥ من يتعامل معه فتحية مباركة طيبة
مباركة لهذا النبي الذي جمع هذه الخصال - - - و الشمائل الكريمة .

{ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) }

• كيف انتهت حياته؟؟

قال الحافظ ابن كثير : روى الحافظ بن عساكر في [المستقصى في فضائل الأوصى]
عن قاسم مولى معاوية : قال : كان ملك هذه المدينة - يعني دمشق - هداد بن هدار و
كان قد زوج ابنه بابنة أخيه أربل ملكة صيدا ، وكان قد حلف بطلاقها ثلاثاً ثم إنه أراد
مراجعتها ، فاستفتى يحيى بن زكريا فقال : " لا تحل لك حتى تنكح زوجاً غيرك "

فحدقت عليه و سألت من الملك رأس يحيى بن زكريا و ذلك بإشارة أمها فأبى عليها ، ثم أجابها إلى ذلك ، وبعث إليه و هو قائم يُصلي في مسجد جيرون من أتاه برأسه في صينية فجعل الرأس يقول : " لا تحل له ، لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره " .

فأخذت المرأة الطبق و حملته على رأسها ، و أنت به أمها فلما تمثلت بين يدي أمها خُسف بها إلى قدميها ثم إلى حقوبها و جعلت أمها تولول و الجواري يصرخن و يلطمن وجوههن ، ثم خُسف بها إلى منكبها ، فأمرت أمها السيّاف أن يضرب عنقها ، لتتسلى برأسها ففعل ، فلفظت الأرض جثتها عند ذلك ووقعوا في الذل و الفناء .. و كان جزاؤها من جنس عملها لما اجتزت رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام أجزئ رأسها ، جزاءً وفاقاً [(١)] .

(١) [كتاب الجزاء من جنس العمل ١ / ٣٢٣ للدكتور سيد عفاني]

"رحمة الله تعالى بمريم و ابنها عيسى عليه السلام"

فضائل السيدة مريم :

تكرر ذكر السيدة مريم في القرآن أربعاً و ثلاثين مرة ، ولم يذكر اسم امرأة غيرها ، بل و سمي الله سورة كاملة باسمها احتفاء بها و إكراماً لها و إعلاء لشأنها ،ومما دُكر في فضائلها قول النبي صلى الله عليه وسلم: " أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد و مريم بنت عمران و آسية بنت مزاحم امرأة فرعون" (١).

وشُهد لها بالكمال قال صلى الله عليه وسلم " كَمُلَ من الرجال كثير و لم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون و مريم ابنة عمران و إن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام " (٢).

هذه هي السيدة مريم و هذه هي فضائلها فهيا لنتدارس قصتها كما وردت في كتاب الله و نجمع ما ورد فيها من الحكم و الوقفات و العظات . و سنجمع في تدبرنا بين سورتي آل عمران و مريم فهما أكثر سورتين تحدثتا عن قصتها .

بدأت القصة في سورة آل عمران ، تكلمت عن البيت الذي خرجت منه السيدة مريم .

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)}

أسرة آل عمران أسرة اصطفىها الله ، و اختارها على سائر بيوت أهل الأرض هي بيت من بيوت العلم و العبادة و الصلاح في بني إسرائيل .خُذ الله ذكر هذه العائلة و أنزل سورة كاملة باسمهم [سورة آل عمران]

عمران : والد مريم ، رجلٌ صالحٌ من كبار علماء بني إسرائيل .

حمنة : والدة مريم ، هي أيضاً امرأةً سالحة تقية عابدة لله تعالى .

إذا الأب و الأم كلاهما صالحين..

(١)السلسلة الصحيحة ٢٧٢.

(٢) متفق عليه .

١٧

ومعروف أن صلاح الآباء يؤثر في الأبناء ، أي أن الله يحفظ الرجل الصالح في ذريته تلحقهم بركته ، بركة دعائه ، بركة عبادته ، و بركة استيادعه الله لأبنائه فالصالحون من الخلق يستودعون الله أولادهم ..

والله عز وجل هو الحفيظ إذا استودع شيئاً حفظه ..

قال محمد بن المنكدر رحمه الله [إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده ، و ولد ولده ، و قريته التي هو فيها ، والدويرات حوله فما يزالون في حفظ الله و ستره](١).

تأمل كيف ساق الله عز وجل نبي من أولي العزم من الرسل وهو موسى عليه السلام و معه الخضر ، يأتون من قرية إلى قرية ، يركبون بحراً ، يمتطون سفينة ، يقطعون مسافات و مسافات من أجل ماذا؟؟ حتى يدخل الخضر للقرية و يقيم الجدار المائل فيها فتحت هذه الجدار كنز مدفون لييتيمين في المدينة ..

ولماذا كل هذا الاهتمام ، و العناية و الإكرام لهذين اليتيمين؟؟ قال تعالى { **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا** (٨٢) } سورة الكهف، قال ابن عباس رضي الله عنهما : [حُفْظًا بِصَلَاحِ أَبِيهِمَا] .. أبوهما رجل ميت في قبره لكنه كان صالحاً ، فحُفِظَ في ذريته و هذه صورة من صورة حفظ الله لأوليائه و الله عز وجل إذا تولى حفظ شيء سخر له من الأسباب ما لا يخطر على بال أحد ..

تأمل حفظ الله للفتية أصحاب الكهف و ماذا سخر الله لهم !!

أواهم إلى الكهف و عمى هذا الكهف عن أبصار الناس بالرغم من قُربه من قريتهم ، ربط على قلوبهم و أنامهم و عادة الخائف لا ينام ، ضرب على آذانهم بنوم ثقيل طويل استمر ثلاثمائة عام و مع كل هذه المدة أبقى أعينهم مفتوحة ، أجسادهم تُقَلَّب ، ألقى عليهم المهابة ، سخر لهم الشمس تزاور عن كهفهم ذات اليمين و إذا غربت تقررهم ذات الشمال ..

كل هذا ليس لعام أو عامين أو لعشرة أعوام بل ثلاثمائة سنة !!! وهم كما هم ، لم يتغير فيهم شيء ، لم يؤذيهم شيء ، لم يقربهم كائن من الكائنات من المخلوقات ، لا إنس و لا جن و لا سباع و لا هوام ولم يتجرأ عليهم أحد ... لماذا؟؟؟؟

لأنهم في حفظ الله و من كان في حفظ الله فلن يُضيعه الله ، فهو الحفيظ جلّ جلاله يحفظ من يحفظونه .. و الحفظ من صفاته الفعلية التي يفعلها الله متى شاء في الوقت الذي شاء مرتبطة بمشيئته و إرادته و حكمته سبحانه و بحمده .

ذكر ابن رجب رحمه الله في كتابه [نور الاقتباس] – قصة تلك المرأة التي كانت لا تملك إلا اثنتي عشر عنزاً و صيِّصيتها – التي تغزل و تنسج بها – خرجت هذه المرأة في سرية مع المسلمين و لما رجعت فقدت عنزاً واحدة و فقدت صيِّصيتها فقالت: - انظر و تأمل أيها القارئ ماذا قالت - [يارب إنك ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه و إنني فقدت عنزي و صيِّصيتي و إنني أنشدك إيّاها]

هي تعرف أن ربها هو الحفيظ إذا استودع شيئاً فإنه لا يضيعه فناشدته باسمه الحفيظ ، فما أصبحت إلا و عنزها و مثلها و صيِّصيتها و مثلها عندها (١). أي أن الله حفظها ورد عليها مالها ومثله معه.

و تأمل أيضاً أيها القارئ هذه الصورة العجيبة من صور الحفظ :

أيوب عليه السلام قبل أن يمرض كان إذا مرّ بإثنين يحلفان بالله يذهب و يُكفر عنهما يمينهما لئلا يأتمان و هما لا يشعران – و هذا من شدة صدقه في حفظ الأيمان ..

فلما مرض – و طالت مدة مرضه – حلف أن يضرب زوجته مئة جلدة إذا هو عوفي .. لما عوفي و شفاه الله و رفع عنه البلاء أفتاه ربه بالرخصة فقال : { وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا قَاضِرْبٌ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ^ف إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا^ع نِعَمَ الْعَبْدِ^ط إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) } سورة ص ، هذه الرخصة أنته لحفظه أيمانه و أيمان غيره .. فحفظه الله في يمينه و جعل له فرجاً و مخرجاً . (٢)

و خلاصة ما نخرج به من هذه الوقفة أن نعلم جميعاً أن الله هو الحفيظ – يحفظ من يحفظونه ، و أنه لا يُضيِّع عباده و أوليائه .

و على هذا فأعظم ما يدخر الآباء لأبنائهم من بعدهم أن يكونوا هم صالحين في أنفسهم لأن هذا الصلاح يدخره الله لأبنائهم من بعدهم ، ينفعهم الله به ..

كن صالحاً و تحقق بالصلاح و لن يضيعك الله ..

(١) [رواه أحمد الهيتمي و رجاله رجال الصحيح] ، (٢) الجزء من جنس العمل /٢ ص٤٧١ .

أهدي إلى محمد بن كعب القرظي و هو من كبار التابعين و من أشهر المفسرين -مبلغ كبير من المال فتصدق به كله ، لم يُبقي منه شيء فقيل له لو أبقيت شيئاً لأولادك ، فقال: [ادخرت مالي لنفسي عند ربي و ادخرتُ ربي لأولادي]

الله أكبر ما أعظمها من كلمة لو أنها نفذت و تسللت للقلب و استقرت فيه و هذا ما قرره نبينا صلى الله عليه وسلم حين قال : " احفظ الله يحفظك "

إذا كانت طيباً مطيباً صالحاً في نفسك سيخرج نباتك طيباً ، و ثمرتك طيبة ، فالفرع ممتد من الأصل ، و شجرة التفاح لا تطرح حنظلاً بل ستطرح تفاعاً ..

““““

• **والدا مريم كانا صالحين فرزقا بهذه النبتة الطيبة و هذه الفتاة الصالحة ، كيف حملت والدة مريم بها ؟؟**

قال ابن كثير رحمه الله : [كانت امرأة عمران عاقراً لا تلد ، فرأت يوماً طائراً يُطعم فرخاً له فاشتتهت الولد ، واشتافت بفطرتها للأمومة ، دعت ربها أن يرزقها الولد ، و نذرت نذراً إن رزقت هذا الولد أن تجعله محرراً { إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) }

[محرراً] خالصاً لخدمة البيت المقدس ، أي أنها لم تطلب الولد من أجل الذكر أو الخدمة ، أو المتعة أو لأي حظ من حظوظ النفس المباحة هي تريد الولد لله ، تريد لخدمة البيت المقدس ، و هذه درجة عالية من الإيمان عند هذه المرأة الصالحة .

استجاب الله دعائها فرزقها بالحمل ، وضعت حملها تحسرت حزنت و ظهر حزنها واضحا في كلامها { فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَدُرِّيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) } خشيت أن لا تكون الأنثى التي وضعتها كافية للنذر إذ تحمّل الذكر أقوى من الأنثى و خدمة بيت المقدس و التفرغ لعبادة الله في بيت الله ، تحتاج إلى مزيد من الجهد والقوة و الجِد و الصبر لكن إن فاتها أن يكون المولود ذكراً فلا تفوتها التسمية ، سمت مولودتها [مريم] ومعناه : خادمة الرب- العابدة القانتة .

بقيت أم مريم و فية لربها ، تريد أن تفي بالنذر الذي نذرته و العهد الذي عاهدته ، و قبل أن نعرف كيف وفت بنذرها ؛ ٢٠ ، وقفة مع العبارة السابقة [تفي بالنذر الذي نذرته و العهد الذي عاهدته]

يقول العلماء : [إذا أنست من قلبك قسوة فانظر قد تكون نقضت عهداً مع الله^(١) ، فالله يقول { فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ... (١٣) } سورة المائدة .

أعظم الغدر أن يُعاهد العبد ربه بشيء عهداً موثقاً ثم لا يعني به، [أعاهدك يارب إن سترتني و لم تفضحني أن أفعل و أفعل ... و يستره الله ثم ينقض عهده !!!

أعاهدك يا رب إن نجيتني و انقذت ابني أن أفعل و أفعل .. و ينجيه الله و يُلطف به و يعطيه مقصوده ثم هو ينقض العهد !!

نقض العهد شديد خاصة على القلب ..

السيدة عائشة رضي الله عنها نذرت أن لا تكلم ابن أختها عبد الله بن الزبير - لأمر وقع بينهما - فقالت : [هو لله عليّ نذر أن لا أكلم ابن الزبير أبداً] . استشفع إليها حين طالت الهجرة و لكنها أبت و رفضت أن تُشفع فيه أحداً ، فلما طال على ابن الزبير الأمر تشفع بأحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني زُهرة ليدخلوه عليها ، أدخل عليها بحيلة ، فاعتنق عبد الله عائشة و أخذ يناشدها و يبكي ، و أخذوا يناشدونها الرحم و يذكرونها بنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هجر المسلم لأخيه فوق ثلاث ، و ما زالوا بها فقالت لهم و هي تبكي : " إني نذرت و النذر شديد "

فلم يزالا بها حتى كلمت ابن الزبير و أعتقت في نذرها ذلك أربعين رقبة .. وكلما تذكرت نذرها تبكي رضي الله عنها حتى تبل خمارها [(٢) تأمل و دقق و أعد قراءة موقف السيدة عائشة رضي الله عنها لتعرف كيف كان صحابة رسول الله يُعظمون العهود و النذور و يتمثلون في حياتهم قول الله تعالى { .. وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) } سورة الإسراء ، و يعلمون أن نقض العهد من أمارات و صفات المنافقين و دليلٌ على خسة النفس و حقارتها ..

(١) استمع لشرح معالي الشيخ/صالح بن عبد العزيز آل الشيخ في (صفات المنافقين).

(٢) انظر فتح الباري – كتاب الأدب باب الهجرة ٦٠٥ .

وقد شبه الله عز وجل الذي يحلف و يُعاهد أو يُبرم عقداً بالمرأة التي تغزل غزلها و تفتله محكماً ، و شبه الذي ينقض عهده بعد الإحكام بتلك الغازلة إذا نقضت قوى ذلك الغزل فحلته بعد إبرامه^(١) { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۗ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ ۗ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } سورة النحل

نرجع لأم مريم لنرى كيف وفت بنذرها؟

بعد أن وضعت مولودتها لفتها في خروقتها و أرسلتها لبيت المقدس ، و كانت ابنة إمامهم و صاحب صلاتهم فتنازعا فيها فكل واحد منهم يريد أن ينال شرف كفالتها و الإشراف عليها و اختصموا في ذلك فلم يجدوا حلاً إلا بالقرعة .

و الآيات تصور لنا هذا المشهد: { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعِيبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۗ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْفُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } (٤٤)

كانت القرعة أن ينطلقوا للنهر ، و كل واحد منهم يلقي قلمه (أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة) فأيهم يجري قلمه عكس تيار الماء فهو الذي يظفر بكفالتها ، ففعلوا فكان قلم زكريا عليه السلام هو الذي جرى عكس تيار الماء و البقية سارت أقلامهم مع الماء { وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا } فكانت هذه الطفلة في كفالة زكريا عليه السلام و هو الأحق و الأولى بكفالتها لأنه أقرب الناس إليها فهو زوج خالتها و قيل زوج أختها .

نشأت هذه الفتاة نشأة إيمانية صالحة ، تأثرت و اقتدت بزكريا عليه السلام في العبادة و الذكر و العلم اتخذ لها مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواها فكانت تعبد الله فيه ، و تقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها ، كانت عابدة ، زاهدة ، مقبلة على ربها حتى صار يُضرب بها المثل بعبادتها في بني إسرائيل .

أكرمها الله و هي في محرابها تتعبد كان يصل إليها رزقها بلا سعي و لا كدّ و لا تعب و لا كسب منها فإذا دخل عليها زكريا المحراب يتفقدتها ، يجد عندها ألواناً من الرزق في غير أوانه } .. قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } (٣٧)

(١) [المحرر الوجيز (٩٦/١٥)]

اصطفاء مريم على النساء :

٢٢

مضت السنوات .. ومريم ما زالت في كفالة زكريا و في محرابها تتعبد ربها ، جاءتها الملائكة بالبشارة الأولى : { وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) }

بُشرت مريم باصطفاء الله لها بين سائر نساء عالمين زمانها ، انتقاها من بين النساء نشأها نشأة حسنة ، أنبتها نباتاً حسناً ، أكرمها أسبغ عليها نعمه و توفيقه و رعايته ، ألهم أمها أن تنذرها له و هي في بطنها ليجعلها خالصة محررة له ، هياً لها الحياة و العيش تحت كنف و رعاية نبي كريم ، قدّم لها الرزق المنوع الشامل و هي في المحراب تكريماً لها و لم تتوفر هذه الأمور لأي امرأةٍ غيرها مهما بلغت من الصلاح و التقوى و هذا هو الاصطفاء الأول المذكور في الآية .

ثم اصطفاه اصطفاءً ثانياً حيث خصّها و حدها بأية باهرةٍ معجزةٍ خارقةٍ بإنجابها الولد بدون أب . (١) و تكون المرأة الوحيدة في الدنيا التي تحمل و هي بكر عذراء و تنجب بدون زوج و يكون ابنها نبياً و رسولاً عليه السلام .

ثم بعد هذا الاصطفاء جاء الأمر لها :

{ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) } عليها أن تقابل هذا الاصطفاء بالشكر ، و شكرها يكون بالإكثار من العبادة و القنوت و السجود و الركوع حتى تكون أهلاً لهذه الكرامة فيقال أنها كانت تقوم في الصلاة حتى تفترت قدمها رضي الله عنها و رحمها .

و كل اصطفاء فيه مشقة ..

فالعبد إذا أعطي من النعمة كمالها كان المطلوب منه أكثر من المطلوب من غيره ، و هذا له شواهدٌ من القرآن : { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي

دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) } و هذه نعمة كبيرة و فضل عميم بمقتضى هذه النعمة ما الأمر
الذي نزل : { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَعِظْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) } { إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ
(١) } بمقتضى هذه النعمة : { فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ (٢) }

(١) [القصص القرآني ١٩٢/٤ د. صلاح الخالدي]

فكل من أصطفى أو أنعم عليه أن يُقابل هذا الاصطفاء بالشكر و العبادة و القنوت و الخضوع لله تعالى .

ثم جاءت الملائكة لمريم بالبشارة الثانية :

{ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) }

بُشرت أنها ستلد ولداً يُخلق خلقاً خاصاً من غير أب سيُخلق و يُوجد بكلمة الله [كن] فيكون بأمر الله و سيجعله آيةً و معجزة ورحمة ..

حتى نعرف كيف تمت تفاصيل هذه البُشرى سننتقل لسورة مريم .

{ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) }

خرجت مريم من محرابها و انفردت في مكان شرقيّ المسجد الأقصى ، خلت بنفسها لشأن من شؤونها الخاصة لكنها تفاجئت أمامها بشاب وسيم جميل سوي الخلقة !! و اهتزت مريم هزة شديدة أصابها ما أصابها من الفزع و الخوف و التوتر و الخجل من رؤية رجل غريب يقف أمامها ..

فاستعازت بالله مباشرة { قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) } إن كنت ممن يتقي الله و يخشى فأنا أعوذ بالرحمن منك ، لم تقل أعوذ بالجبار أو القهار أو الملك و إنما قالت أعوذ بالرحمن ، ذكرته بالرحمن حتى يرحمها و كأنها تقول له : [ارحم ضعفي و أنوثتي و وحدتي ...]

قبل أن نعرف بماذا ردّ عليها هذا الشاب ، دعنا نقف و نتعاشش مع مريم في هذا الموقف ...

مريم الآن ليست في المحراب ، خرجت من مكان العبادة ، ليس معها أحدٌ من العباد أو ممن يخدمون معها في بيت المقدس هي لوحدها و المكان خالي ، فتاة شابة عذراء و

أمامها شاب وسيم سوي الخلقة إذأ هي في موطن فتنة ، توفرت دواعي المعصية ، و الإنسان ضعيف ، و الثبات أمام الشهوات عزيز ..

٢٤

لكن هذه الفتاة العذراء بقت على عفتها و بعواها و حيائها و إيمانها حتى في خارج محرابها و حتى لو لم يرها أحد..

دخلت دائرة من دوائر الابتلاء لكنها نجحت فيها و استعادت بربها و لجأت إليه ومن استعاذ بالله أعاده ...

هزّ هذا الشاب مسامعها بهزة عنيفة أعنف من الأولى [حين أفصح عن شخصيته و المهمة التي أرسل بها] قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً (١٩) [

لك أن تتخيل أيها المتدبر نفسية هذه ٢٤ ب عمرها من السادسة عشرة و هي تسمع مثل هذا الخبر ! هي أمام مفاجأة مذهلة ؛ كيف أحمل ؟ أنا لست بذات زوج و لا أنا امرأة بغي ؟؟ ماذا سأقول لزكريا ؟؟ ماذا سأقول للناس ؟؟ و كيف سيصدقونني .. أصبحت في حيرة ، في خوف في ذهول ..

فجاءها الرد القاطع الذي حسم الأمر { قال كذلك قال ربك هو علي هين ^ط ولنجعله آية للناس ورحمة مناء وكان أمراً مقضياً (٢١) }

الأمر قد فُضي ، و خُط في اللوح المحفوظ ، و قدر الله سيمضي و ستلدين غلاماً و كلفني أن أنفخ فيك و هو هين على الله ، ليس مستحيلاً و لا شاقاً و لا صعباً ، استسلمت مريم لأمر ربها و المؤمن ليس له إلا أن يسلم بقضاء الله و قدره ، نفخ جبريل عليه السلام في جيب درعها فنزلت النفخة إلى فرجها ، فحملت من فورها و استقر الحمل

في رحمها و هذه قدرة الواحد الأحد الذي لا يُعجزه شيء في الأرض و لا في السماء
إذا أراد أمراً أن يقول له كنّ فيكون .

استمر حملها مثل بقية النساء ، و بدأ يكبر الحمل في بطنها ، فكان أول من فطن لذلك
رجل من عبّاد بني إسرائيل يُقال له يوسف النجار و كان ابن خالها ، فجعل يتعجب من
ذلك عجباً شديداً لما يعلمُ من ديانتها و نزاهتها و عبادتها ، فعرض لها ذات يوم في
الكلام فقال : [يا مريم هل يكون زرع من غير بذر ؟؟ قالت : نعم ، فمن خلق الزرع
الأول .

ثم قال: فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر ؟؟ قالت : نعم ، فمن خلق الشجر
الأول.ثم قال : فهل يكون ولدٌ من غير ذكر ؟

قالت : نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر و لا أنثى .. قال لها : فأخبريني خبرك .
فأخبرته و قيل : أن زكريا عليه السلام سألها أيضاً بمثل هذا فأجابته و الله أعلم (١)

لما شعرت مريم بالآلام الولادة و خافت من الفضيحة اعتزلتهم و توارت عنهم و خرجت
إلى مكان بعيد : { فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ
النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (٢٣) }

ألجأتها آلام الولادة و آلام الطلق و الإعياء و الزفرات أن تبحث عن شيء تتعلق به و
تستند عليه تمسكت بجذع نخلة يابس لا سعف عليه و لا عُصن له . فتاة صغيرة ضعيفة
، لا أم معها و لا خالة و لا قابلة تولدها ، لا أحد يُخفف أو يواسي أو يُعين ..

اجتمعت عليها الهموم ، الولادة و آلامها ، الوحدة التي هي فيها ، همّ الفضيحة و خوفها
من كلام الناس علمت أنهم سيهمزون و يلمزون و يتهمونها و لا يصدقونها فأطلقت
زفرةً شديدة موجعة : { قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا }

وفي هذه اللحظات العصبية التي تعصف بمريم بجسدها و بقلبها و بمشاعرها تنزلت
رحمة الله بها ، تغمدها الله برحمته ، أحاطها بعنايته..

و إذا العناية لاحظتك عيونها نمّ فالمخاوف كلهنّ أمان

الله لا يضيع عباده و لا يتخلى عنهم ، بل هو مع عباده المؤمنين معية خاصة و من
رزق هذه المعية فإن الله يسدده و يحوطه و يكلؤه و يرعاه و يدافع عنه و يُطمئن قلبه و
يذهب حزنه ، تأمل كيف ثبتّ الله قلب مريم و حُفّت بالرحمات و الألفاف و تحول
العسر إلى يسر و الكرب إلى فرج و الضيق إلى سعة ..

أنطق الله عيسى عليه السلام ، المولود الذي ما زالت آثار الولادة بادية عليه ، أنطقه الله
لتثبيت قلب أمه : { فَأَنادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهَزِّي
إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا (٢٥) }

وتصور مدى مفاجأة مريم و هي تسمع المولود يناديها و يكلمها و يرفع معنوياتها !! لا
تحزني مما حصل فإن الله معك يتولاك و يرعاك ، فهاهو الطعام و الشراب عندك..

أجرى الله لها نهراً صغيراً من تحتِ ٢٦ عليها الرطب من تلك النخلة اليابسة التي اخضرت و أثمرت في غير أوانها كرامة لها و تسلية لقلبها و إظهاراً لقدرته جلّ جلاله و عجيب صنعه ..

ثم ماذا ؟؟؟

{ فَأَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) } {اتركي الأمر كله لله ، اتركي المواجهة مع قومك ، وفوضي أمرك له ، فهو يتولى الدفاع عنك و صومي عن الكلام .

فلما امتلأ قلبها باليقين و بدفاع الله عنها أخذت مولودها و ذهبت لقومها : { فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهَا ^ط قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (٢٨) }

بدأ بنو إسرائيل بالاتهامات و السخرية و التهكم و التشكيك و التحريض لكنها التزمت الصمت و أشارت إلى مولودها ..

أنطقه الله أمامهم و هذه معجزة و أي معجزة و كان أول ما تكلم به أمام بنو إسرائيل أنه نزه الله عن الولد و أن العبودية لله وحده لا يشاركه فيها أحد ، و هذه هي البداية الإيمانية لعيسى عليه السلام التي بدأ فيها و هو طفل في المهد ، يقرر فيها أنه عبد الله ، و أن الله وحده هو الرب :

{ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) }

واختلف اليهود و النصارى في شأن عيسى عليه السلام ، أما اليهود فقد كذبوا به و افتروا عليه و نالوا منه ، و أما النصارى غلّوا فيه غلّواً شديداً فجعلوه الله نداً وولداً - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-

قال الله في الحديث القدسي " شتمني ابن آدم و لم يكن له ذلك يزعم أن لي ولداً و أنا
الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد و لم يكن لي كفواً أحد " (١) .

(١) البخاري / ٤٩٧٤ .

وقال صلى الله عليه وسلم : " لا أحد أصبر علم ، أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً
و هو يرزقهم و يُعافيهم " (١) ٢٧

• شبّ عيسى عليه السلام و قد جاءت روايات عديدة في وصف خلقته و هيئته . قال
صلى الله عليه وسلم : " رأيت عيسى و موسى و إبراهيم فأما عيسى فأحمر جعد
عريض الصدر " (٢)

و في رواية " ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس " ، و أراني الليلة عند الكعبة في
المنام ، فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من آدم الرجال ، تضرب لمتة بين منكبيه ، رَجُل
الشعر ، يقطر رأسه ماءً ، واضعاً يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت فقلت من
هذا ؟ فقالوا : هذا المسيح ابن مريم " (٣) .

ومن خلال النظر في هذه الأحاديث نخرج بوصف عيسى عليه السلام – أنه ربعة " لا
بالطويل ولا بالقصير ، قامته معتدلة ، لونه أبيض مشرب بالحمرة ، شعر رأسه سبط
ممتد إلى منكبيه كأنه يقطر ماءً و لم يُصبه بلل و ذلك من بهائه ، وهو متدفق حيوية و
نضارة و بهاء " (٤)

كان عابداً زاهداً يلبس الصوف ، و يلبس نعلين من لحاء الشجر ، وربما طوى الأيام و
الليالي ، لما بلغ أشده هبط عليه جبريل عليه السلام و بدأت نبوته ..

بعثه الله إلى بني إسرائيل ، أنزل عليه الإنجيل ، أيده بالمعجزات و الآيات و معلوم أنه ما من نبي إلا و أعطاه الله آيات تدل على نبوته و رسالته فمن معجزاته :

- كان يصنع من الطين تمثالاً لى شكل طائر ثم ينفخ فيه فيتحول إلى طائر حيّ بإذن الله { أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ } (٤٩) آل عمران.
- إبراء الأكمه و الأبرص { وَأَبْرَأُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ } الأكمه : الذي ولدته أمه أعمى فكان عيسى يمسح بيده على الأكمه فيعيد الله له بصره و يزول عماه . ويمسح على الأبرص الذي في جسمه بقع بيضاء وهو مرض منفر ، ينفر الناس من الأبرص و يتجنبونه فيبرأ الأبرص من مرضه بإذن الله.
- إحيائه الموتى { وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ } كان يمرّ على الموتى و هم في قبورهم فيدعو الله أن يحييهم فيستجيب الله له فينشق القبر عن الميت و يخرج حياً يمشي بين الأحياء .

(١) البخاري / ٧٣٧٨ .

(٢) البخاري / ٣٤٣٨ .

(٣) البخاري و مسلم .

(٤) القصص القرآني / ٤ / ٤٠١

- إخباره بنو إسرائيل بما يأكلون و ما يدخرون في بيوتهم من أصناف الطعام { وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي ٢٨

وبعد كل هذه المعجزات ما هو موقف بنو إسرائيل ???

كفروا به ، كذبوه ، قالوا ساحرٌ كذاب ، فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله ??? من أعواني و مساعدي في الدعوة إلى الله ..

{ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } (٥٢)

من هم الحواريون ?? هم أصفياء و أصحاب عيسى عليه السلام الذين ألهمهم الله الإيمان بعيسى ، يُقال أن عيسى عليه السلام مرّ على بحيرة طبرية ووجد صيادي سمك فدعاهم إلى الله فاعتذروا لانشغالهم بصيد السمك ، فقال لهم عيسى : تعالوا أعلمكم صنعةً

تصيدون بها العالم بدل صيد السمك ، فتبعه جماعة منهم قيل إنهم هم الحواريون ، و أصبحوا ينتقلون معه من قرية إلى قرية لدعوة بني اسرائيل .

بقدر الله وصلوا إلى صحراء و شعروا بالجوع و لم يكن معهم شيء ، فطلبوا من عيسى عليه السلام طلباً غريباً { إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ... (١١٢) }

اختلف المفسرون : هل كان سؤالهم من باب الشك في قدرة الله هذا قول لبعض المفسرين و القول الآخر و هو الراجح و الله أعلم – أنهم سألوا المائدة من باب زيادة اليقين و زيادة الإيمان ، كما سأل إبراهيم ربه { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ۖ قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُونَ ۖ قَالَ بَلَىٰ ۖ وَلَئِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي (٢٦٠) } سورة البقرة .

لما طلب الحواريون من عيسى هذا الطلب استعظم عيسى عليه السلام طلبهم و استنكره و قال : { قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } فبينوا له هدفهم من هذا الطلب :

• { قَالُوا ثَرِيدٌ أَنْ نَأْكَلَ مِنْهُ } وهذا دليل أنهم كانوا بحاجة للطعام و قيل أيضاً أرادوا التبرك أي ينالون بركة هذا الطعام المنزل من السماء .

● { وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا } بعد أن نراها أمام أعيننا و نمدّ أيدينا إليها و نأكل منها سنزداد يقيناً و إيماناً ، فمعلوم أن المؤمن تزداد طمأنينة قلبه عندما يرى و يُشاهد آية و معجزة أمام عينيه ، فليس من شاهد كم سمع .

● { وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا } و نعلم أنك قد صدقتنا في نبوتك و آياتك ومعجزاتك ، فكأنهم أرادوا آية خاصة لهم ينتفعون هم منها.

● { وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ } أي نريد أن نشهد على إنزال المائدة و أن الله أيدك بها و نخبر بها الآخرين .

لما اطمأن عيسى عليه السلام إلى إيمانهم و عرف أهدافهم من طلب المائدة استجاب لطلبهم فدعا الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء { تَنْزِيلُنَا لَنَا عِيدًا لِأَوْلَانَا وَآخِرِنَا } أي نجعل من يوم نزول المائدة عيداً نعبد الله فيه نعظمه نحن و من بعدنا ، { وَآيَةٌ مِنْكَ } وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)

استجاب الله دعاء عيسى عليه السلام : { قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ } رفع القوم رؤوسهم إلى السماء فإذا المائدة تنزل عليهم حتى استقرت أمامهم و بين أيديهم و كل هذا إكراماً لعيسى عليه السلام و تصديقاً لنبوته و إكراماً لمن معه من الحواريين .

ثم جاءت الآيات بالتهديد { فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ } (١١٥) وهذا تهديد شديد من الله عز وجل لمن سيكفر من الحواريين و مشاهدي المائدة بعد إنزالها و أكلهم منها و تحقيق مرادهم بأن الله سيعذبهم عذاباً شديداً لا يُعذبه أحداً من العالمين و ذلك بسبب عظم و قبح جريمته و كفره .

● تحدّث الناس بهذه المعجزة آمن منهم من آمن ، لكن اليهود ظلوا على كفرهم بعيسى عليه السلام و عنادهم و عتوهم بل طغوا و بغوا و تجاوزوا الحدّ و أخذوا يُطاردونه من قرية إلى قرية يريدون قتله كما قتلوا زوج خالته زكريا و ابن خالته يحيي عليهما السلام .

مكر اليهود بعيسى عليه السلام :

٣٠
أصبح عيسى عليه السلام مُطادراً من اليهود ، فكان يُكثر من السياحة هو و أمه و لا يُساكنهم في قرية و مع ذلك استطاع اليهود بخبثهم و مكرهم و غدرهم أن يؤلبوا ملك دمشق في ذلك الزمان و كان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب على عيسى و دعوته .

ووشوا عنده أن هناك رجل ببيت المقدس يفتن الناس و يُضلهم و يُفسد عليك رعيتك فغضب هذا الملك و كتب إلى نائبه في القدس أن يقتل عيسى و يصلبه و يضع الشوك على رأسه .

امتثل والي بيت المقدس و ذهب هو و طائفة من اليهود إلى البيت الذي فيه عيسى و أصحابه و لكن الله تعالى قال : { وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) } اليهود مكروا بخبثهم و دهائم ليقتلوا عيسى عليه السلام و لكن الله أبطل مكرهم و مكر بهم فأخرجه من وسطهم حياً !! و حفظه بحفظه و حماه بحمايته ..

وكيف حصل هذا ؟؟

لما حاصر اليهود عيسى عليه السلام أوحى الله إليه { إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. } .

● يا عيسى : إنني سأتوفاك ، بأن ألقى عليك النوم – فالوفاة هنا بمعنى النوم – و سأرفعك إليّ في السماء عند نومك و أطهرك من اليهود و لن تمتد إليك أيديهم المجرمة ، ولن يؤذوك .

● عندها أخبر عيسى أصحابه ، وودعهم ، و بشرهم برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ثم قال : " أَيْكُمْ يُلْقَى عَلَيْهِ شَبْهِي وَ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ ؟ فَقام أصغرهم و انتدب نفسه ، فأعاد السؤال عليهم ثانية و ثالثة و لم يقم إلا ذلك الشاب .

فقال له عيسى : أنت هو !

فألقي الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو .

ثم فُتحت (روزنة) - فتحة من سقف البيت - و أخذت عيسى عليه السلام سنة من النوم فرُفع إلى السماء ، فلما رُفع ؛ ظهر أصحابه من البيت فقبض اليهود على ذلك الشاب الذي أُلقي عليه الشبه ظناً منهم أنه عيسى ، فقتلوه و صلبوه ووضعوا الشوك على رأسه .

فرح اليهود و أذاعوا أنهم قتلوا عيسى و صلبوه و الله كذبهم : { وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) } سورة النسا ٣١

و أما النصارى : الذين لم يُشاهدوا رفع عيسى إلى السماء ، فصدقوا اليهود بأنهم قتلوا عيسى و صلبوه و افترق النصارى في شأن عيسى عليه السلام إلى ثلاث فرق :

- منهم من قال : أن عيسى هو الله و هؤلاء هم اليعقوبية و الله يقول : { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) } سورة المائدة .
- ومنهم من قال أن عيسى هو ابن الله و هؤلاء هم النسطورية ، يعتقدون أن الله عز وجل غضب على آدم و ذريته بسبب خطيئة آدم حين أكل من الشجرة ، ثم إن الله أراد أن يمتن على البشرية فأرسل لهم ولده عيسى فالتحم ببطن مريم ثم ولدته ثم لما كبر قُتل و صلب ليخلص الناس من خطاياهم و يتحمل خطايا البشر ...!!! { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) } سورة مريم .
- ومنهم من قال بعقيدة التثليث وهي جعل عيسى و أمه إلهين مع الله ، { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) } سورة المائدة .

وكل هذا تحريف من النصارى لدينهم و إدخالٌ للشرك للنصرانية الموحدة التي دعا إليها عيسى عليه السلام و قد صرّح عيسى أنه عبّدُ الله و طالب بني إسرائيل بعبادة الله وحده و أن الله ربه و رب ني إسرائيل و من أشرك به فهو كافر { وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) } سورة المائدة .

و سينتبرأ عيسى عليه السلام يوم القيامة من تأليه كُفار النصارى له ، و يُصرّح أنهم كذبوا عليه ، و نسبوا إليه ما لم يقله ، ٣٢ م إلا إلى عبادة الله وحده

{ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلْهُيْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۖ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۖ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۖ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۖ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) } سورة المائدة .

نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان

أخبرنا الله في القرآن و أخبرنا رسوله صلى الله عليه وسلم أن عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان ..

الدليل من القرآن :

١- قول الله تعالى : { وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) } سورة آل عمران.

قال ابن زيد : قد كلمهم عليه السلام في المهد ، و سيكلمهم إذا قتل الدجال و هو يومئذ كهل .

٢- وقوله تعالى : { وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُون ۗ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) } سورة الزخرف.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : [هو خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة] ، و المعنى : إن نزول عيسى في آخر الزمان سيكون علامة من علامات الساعة دال على قرب قيامها .

٣- وقوله : { وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۗ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) } سورة النساء .

المعنى : ما من أهل الكتاب من أحد إلا سيؤمن بعيسى عليه السلام أنه عبد الله ورسوله و هذا يكون عند نزوله في آخر الزمان ٣٣ تل الدجال و يكسر الصليب و لا يقبل من الناس إلا الإسلام .

و الحسن البصري رحمه الله كان يقول : [و الله إنه الآن لحي عند الله ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون] (١)

الدليل من السنة :

الأحاديث الصحيحة التي تحدثت عن نزول عيسى عليه السلام كثيرة ، وقد خصص لها الإمام محمد أنور شاه الكشميري كتاباً خاصاً سماه [التصريح بما تواتر في المسيح] .

وستتدارس أحد هذه الأحاديث سنورده على طوله لنقف على الجو الذي ينزل فيه عيسى عليه السلام – ثم نورد مُلحقاً بآخر البحث ببقية الأحاديث –

حديث النّوأس بن سمعان عند مسلم و غيره بنزوله :

روى مسلمٌ و أبو داود و الترمذي و ابن ماجة و أحمد عن النّوأس بن سمعان رضي الله عنه قال : " ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدّجال ذات غدة ، فخفّض فيه و رَفَع ، حتى ظنناه في طائفة النخل ..

فانصرفنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم رحنا إليه ، فعرف ذلك فينا ، فقال : ما شأنكم ؟ .

فقلنا : يا رسول الله : ذكرت الدجال غداة ، فخفّضت فيه و رفّعت ، حتى ظنناه في طائفة النخل .

فقال : غير الدجال أخوفني عليكم ، إنّ يَخرج و أنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، و إنّ يَخرج و لست فيكم فامرؤٌ حجيجُ نفسه ، و الله خليفتي على كل مسلم .

إنه شابٌّ ، قَطَط ، عينه طائفةٌ ، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن . فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف .

إنه خارج خُلة بين الشام و العراق ، فعاث يميناً و عاث شمالاً ، يا عباد الله فاثبتوا .

قلنا : يا رسول الله : وما لبثه في الأرض ؟

(١) لقصص القرآني – د. صلاح الخالدي.

قال : أربعون يوماً : يوم كسنة ، و يوم ٣٤ ررم كجمعة ، و سائر أيامه كأيامكم .

قلنا : يا رسول الله : فذلك اليوم الذي كسنة ، أتكفينا فيه صلاة يوم ؟
قال : لا . اقدروا له قدره .

قلنا : يا رسول الله : و ما إسراعه في الأرض ؟

قال : كالغيث استدبرته الريح ، فيأتي على القوم ، فيدعوهم ، ويؤمنون به ، و يستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، و الأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت تُرى ، و أسبغَه ضروعاً ، و أمدهُ خواصر . ثم يأتي القوم ، فيدعوهم ، فيردوا عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون مُملحين ، ليس بأيديهم شيءٌ من أموالهم .

ويَمُرُّ بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك ، فتنبعه كنوزها كيغاسيب النحل .

ثم يدعو رجلاً شاباً ، ممتلئاً شاباً ، فيضربه بالسيف ، فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه ، فيقبل ، ويتهللُ وجهه يضحك ..

فبينما هو كذلك ، إذا بعث الله المسيح ابن مريم ، فينزلُ عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، بين مهرودتين ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، و إذا رفعه تحدر منه ، جمانٌ كاللؤلؤ ، فلا يحلُّ لكافر يجذُ ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه .

فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ فيقتله !

ثم يأتي عيسى قومٌ قد عصمهم الله منه ، فيمسحُ عن وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة . فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى عليه السلام : أني قد أخرجت عبداً لي ، لا يدان لأحدٍ بقتالهم ، فحرزُ عبادي إلى الطور .

ويبعثُ الله يأجوجَ ومأجوجَ ، وهم من كلِّ حدب ينسلون ، فيمرُّ أوائلهم على بحيرة طبرية ، فيشربون ما فيها ، ويمرُّ آخرهم ، فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماءً .

ويُحصِرُ نبيُّ الله عيسى عليه السلام وأصحابه ، حتى يكونَ رأسُ الثور لأحدهم خيراً من مائةِ دينار لأحدكم اليوم . فيرغبُ نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله تعالى ، فيرسلُ اللهُ عليهم النغفَ في رقابهم ، فيصبحون فرسى كموتِ نفسٍ واحدة .

ثم يهبطُ نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون في الأرض موضعَ شبرٍ إلا ملأه زَهْمُهُمْ وَنَنْتُهُمْ ، فيرغبُ نبيُّ الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله ، فيرسلُ اللهُ طيراً كأعناق البُخْتِ ، فتحملُهم فتطرحُهم حيثُ شاء اللهُ .

ثم يرسلُ اللهُ مطراً لا يَكُنُّ منه بيتٌ مَدْرٍ ولا وَبَرٍ ، فيغسلُ الأرضَ حتى يتركها كالزَّلَقَةِ .
ثم يُقالُ للأرضِ : أنبتي ثمرتك ، وردِّي بركتك ، فيومئذُ تأكلُ العصابةُ من الرمانة ، ويستظلون بِقَحْفِها ، ويباركُ في الرِّسْلِ ، حتى إنَّ اللَّقْحَةَ من الإبلِ لتكفي الفئامَ من الناسِ ، واللَّقْحَةَ من البقرِ لتكفي القبيلةَ من الناسِ ، واللَّقْحَةَ من الغنمِ لتكفي الفخذَ من الناسِ .
فبينما هم كذلك ، إذ بعث اللهُ ريحاً طيبةً ، فتأخذُهم تحتَ آباطهم ، فتقبضُ رُوحَ كلِّ مؤمنٍ وكلِّ مسلمٍ ، ويبقى شِرارُ الناسِ يتهارجون فيها تهارجَ الحُمُرِ ، فعليهم تقومُ الساعةُ ."

وقفات مع الحديث:

- سينزل عيسى عليه السلام و هو يلبس ثوبين أصفرين بلفظ الحديث (مهرودين) – وهما حُلَّتَانِ جميلتان فيها لون أصفر خفيف جميل فيجمع بين جمال الخَلْقَةِ و الهيئَةِ و جمال اللباس و الزينة .
- واضعاً يديه على أجنحة ملكين أي يصاحبه في نزوله من السماء اثنان من الملائكة و هو بينهما واضعاً كفيه على أجنحتهما ، و يكون رأسه يقطر ماء و تكون قطراته كبيرة كحبات اللؤلؤ .
- مكان نزوله : عند المنارة البيضاء ، شرقي دمشق و تحديداً عند إقامة صلاة الفجر (١) فيصلي مأموماً خلف الإمام و لا يقبل أن يتقدم عليه لأن الصلاة قد أقيمت له ، ثم بعد صلاة الفجر يتسلم عيسى عليه السلام قيادة الجيش المجاهد الذي يواجه المسيح الدجال و جيشه من اليهود و غيرهم .
- وهذا يعني أن نزول عيسى عليه السلام لا يكون إلا بعد خروج المسيح الدجال .
- سنتكلم عن المسيح الدجال في ستة مسائل و هذا أيسر لنا في تثبيت العلم و الإنتفاع به و كما يُقال: أظفر الناس بالعلم أقدروهم على جمعه (٢)

(١) كما جاء في حديث أبي أمامة الباهلي عند أبي داود و غيره .

(٢) هذا الجمع من الدروس العلمية للدكتور عبد العزيز السدحان ، و الدكتور علي الشبل ، و الكتب .

المسألة الأولى : من هو المسيح الدجال ؟ و ما هي صفته الخلقية ؟

أعظم و أخطر فتنة ستظهر على الناس ، حدّر منها الأنبياء من لدنّ نوح عليه السلام إلى آخر الأنبياء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، قال صلى الله عليه وسلم :

" يا أيها الناس إنّها لم تكن فتنة على وجه الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدّجال " (١) هو رجل من بني آدم مولود من أبوين ، جاءت الأخبار أن والديه يبقيان ثلاثين عاماً لا يُلد لهما ثم يولد لهما هذا الولد . أما هو في نفسه فهو عقيم " **إن الدجال عقيم لا يولد له** "

● هيبته : رجل جسيم ، ضخّم الجسد ، قصير ، أبيض اللون ، عريض المنكبين ، غليظ الرقبة ، أجعد الشعر جعودة شديدة ، أفحج أي متباعد ما بين الفخذين و القدمين إذا مشى ، أعور العين اليمنى " **كأن عينه عنبة طافية** " أي ممسوحة مطموسة لا يرى فيها و على هذه العين العوراء جلدة غليظة . و العين اليسرى أيضاً معيبة فهي ناتئة جاحظة بارزة مكتوب بين عينيه كافر يقرؤها كل مؤمن .

● سمي بالمسيح قيل لأن إحدى عينيه ممسوحة ، و قيل لأنه يسبح في الأرض يفتنته و الدّجال لأنه بلغ من الكذب و الدجل مبلغاً عظيماً حتى لُقّب به [المسيح الدجال]

المسألة الثانية : مكان خروجه و كيف سيخرج ووصف الزمان الذي سيخرج فيه :

تكاثرت النصوص الصحيحة المبينة لمكان خروجه ، فهو سيخرج من خراسان قال صلى الله عليه وسلم " الدجال يخرج من أرض بالمشرق يُقال لها خُرسان " (٢) وخراسان بلاد واسعة في بلاد المشرق تشمل أفغانستان – إيران – أذربيجان – جنوب بحر قزوين .

وكما يقول ياقوت الحموي رحمه الله : [أن خراسان تشمل عدة بلدان منها نيسابور و هُراة و مرو و بلخ و ما يتخلل ذلك من المدن دون نهر جيحون] و تحديداً سيكون خروجه من مدينة أصبهان لقوله عليه الصلاة و السلام : " يخرج الدّجال من يهودية أصبهان معه سبعون ألفاً من اليهود " (٣)

(١) رواه مسلم و ابن ماجة بالفاظ متقاربة .

(٢) أخرجه الترمذي و صححه الألباني .

(٣) أخرجہ أحمد و صحیح ابن حجر إسناده.

٣٧

قال ياقوت الحموي: [إن باختصار القائد المشهور عندما أخذ بيت المقدس و سبى أهلها ، حَمَل معه يهودياً و أنزلهم أصبهان فبنوا لهم محلة في طرف مدينة ونزلوها و سُميت باليهودية] انتهى كلامه مختصراً .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: [فيكون بدء ظهوره من أصبهان من حارة يُقال لها اليهودية]

- يخرج إثر غصبة يغضبها فيخرج للناس بشره ، وقد قال صلى الله عليه وسلم: " إنه خارجٌ حَلَّة " أي فجأة على حين اغترار الناس .
- وصف الزمن الذي سيخرج فيه : في وقت يضعف فيه أمر الدين عند الناس ، و يقل العلم ، و تكثر الفتن ، و تكثر القطيعة .
- قال صلى الله عليه وسلم: " يخرج الدجال في خفةٍ من الدين و إدبار العلم " (١) " أن الدجال ليخرج في زمن اختلاف من الناس و فرقةٍ و بَغْض من الناس و خفةٍ من الدين و سوء ذات بين " (٢)
- يسبق خروجه ثلاث سنين تمرّ بالناس فيها بلاء شديد حتى يلبس الناس لباس الجوع و الشدة و اللؤاء لحديث أبي أمامه رضي الله عنه - صحيح مسلم .
- أيضاً من العلامات الدالة على قرب خروجه ذهول الناس عنه و عن ذكره ، قال صلى الله عليه وسلم: " لا يخرج الدّجال حتى يذهل الناس عن ذكره و حتى تترك الأئمة ذكره على المنابر " (٣)

المسألة الثالثة : سرعته في الأرض وكم سيبقى ؟

شبه النبي صلى الله عليه وسلم إسرائع الدجال في الأرض و انتشار فتنته و سرعة تسامع الناس به كالغيث فقال : " كالغيث استدبرته الريح " (٤)

كم سيمكث في الأرض؟ سأل عن ذلك الصحابة رضي الله عنهم فقال صلى الله عليه وسلم: " أربعون يوماً ، يوم كسنة ، و يوم كشهر ، و يوم كجمعة ، و سائر أيامه كأيامكم " (٥) فعلى هذا يصبح مدة مكث الدجال بين الناس يفتنهم سنة و شهرين و أسبوعين .

(١) أخرجه أحمد . (٢) أخرجه ابن حبان و الحاكم .

(٣) أخرجه عبدالله بن الإمام أحمد عن الصعب بن جثامة رضي الله عنه .

(٥) أخرجه مسلم من حديث النّوأس . (٤) أخرجه مسلم عن أنس رضي الله عنه .

المسألة الرابعة : ما هي فتنته ؟ ومن هم أتباعه ؟

١- من أعمال الدجال التي يفتن بها الناس أنه أعطي نهران يجريان أحدهما ماء و الآخر نار رأي العين ، ولكن حقيقتهما أن الماء هو النار و النار هو الماء ، و قد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم : " أن من أدركه و ابتلي به فليأت الذي يراه ناراً و ليغمض ثم ليطأطئ رأسه فيشرب فإنه ماء بارد " أخرجه مسلم .

٢- ومن فتنته أنه أعطي خوارق لم تجر العادة بقدرة الخلائق عليها بل بعضها خاص بالله تعالى و بعضها من معجزات الأنبياء لكن الله أمكنه منها و أجراها على يدي هذا الكافر الدجال من باب الفتنة و الاختبار للعباد .. ومنها :

- أنه يقول للأعرابي أرأيت أن أبعث لك أباك و أمك أتشهد أنني ربك ؟ فيقول : نعم ، فيتمثل له شيطان في صورة أبيه و أمه فيقولان : يا بني اتبعه فإنه ربك .
- أنه يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه نصفين ثم يدعوهم فإذا هو يعود كما هو شاباً و يقبل ووجهه يتهلل يضحك .
- يأمر السماء فتمطر ، و الأرض فتنتب ، و يمرّ بالأرض الخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيغاسيب النحل .

أكثر أتباعه :

قال صلى الله عليه وسلم : " أكثر أتباع الدجال اليهود و النساء " أخرجه أحمد .

أما اليهود فقد قلنا سابقاً أنه سيخرج من أرض يسكنها اليهود فيكون أكثر أتباعه من اليهود قال صلى الله عليه وسلم : " يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالة " أخرجه مسلم . ولما كان الأمر كذلك كان في معتقد اليهود أن اسم الدجال المسيح بن داود ، و أنه يخرج في آخر الزمان و أن سلطانه سيبلغ البر و البحر و تسير معه الأنهار ، و يزعمون أنه آية من آيات الله سيرد إليهم الملك الي سلب منهم .

و أما النساء : فالغالب أن النساء كثيرات التقلب ، سريعات التأثر ، قليلات العلم ضعيفات الإيمان فيسهل اتباعهم له لما يرون ما معه من الخوارق و الفتن ، بل إن الأمر يصل إلى أن الرجل إذا سمع بخروج الدجال يرجع إلى زوجته و أمه و ابنته و أخته و عمته فيوثقهن رباطاً مخافة أن يخرجوا إليه .

۳۹

• نساؤنا اليوم إذا رأوا – صيحة من صيحات الموضة – وهي لا فتنة و لا إعجاز ولا خارقة ينساقون لها انسياقاً عجبياً ، انسياق يكاد يكون أعمى ، فكيف لو شاهدوا الدجال بخوارقه يا أرض انبتي يا سماء أمطري ، هل أحي لك أباك و أمك ؟ .. إذا ماذا سيفعلن؟؟

• من أتباعه أيضاً : جهلة الأعراب الذين يسكنون بالبادية لقلة الدين و قلة العلم فلا يسمعون عن العلم و مجالس العلم إلا لماماً مشغولون بأغنامهم و إبلهم و رعيهم ، انتشر فيهم الجهل و الجهل دائماً يُهلك صاحبه .. و قد أوردنا حديث أبي أمامة رضي الله عنه " إن من فتنته أن يقول للأعرابي : أرأيت إن بعثت لك أباك و أمك " رواه ابن ماجه و ابن خزيمة و الحاكم .

• من أتباعه الكفار و المنافقون : فهؤلاء هم أسرع الناس إلى الباطل و أبعد الناس عن الحق و قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أن الدجال يُمنع من دخول المدينة ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات فيخرج إليه كل منافق و منافقة " و في رواية " كل كافر و منافق " متفق عليه .

• ومن أتباعه قوم كأن وجوههم المجان المطرقة كما رواه أحمد و الترمذي و ابن ماجه و الحاكم . المجان : أي التروس ، المطرقة : أي يكون بعضها فوق بعض .

المسألة الخامسة : ما أسباب العصمة من فتنته ؟

١- الثبات على الدين تلکم الفتنة هي أعظم الفتن ، لا يثبت أمامها إلا من ثبته الله و الثبات عزيز و الله عز وجلّ حكيمٌ في أفعاله يثبت من كان أهلاً للثبوت ، ويربط على قلب من كان أهلاً للربط .

فأهل الثبات و هم المؤمنون الصادقون الذين هدوا إلى الطيب من القول و هدوا إلى صراط العزيز الحميد ، الذين كان لهم رصيماً إيمانياً و خزيناً إيمانياً سابقاً من [صلاة – و تلاوة – و نوافل – و صدقات – و قرب – و إحسان] وكل يوم يمرّ عليهم تزيد فيه أعمالهم و يرتفع فيه إيمانهم إذا جاءت الفتنة و جاء التمحيص و الاختبار ينفعهم إيمانهم ينفعهم ذلك الخزين من الأعمال فتثبت قلوبهم و يُربط عليها .. لا تزيع و لا تروغ و لا تنتكس و لا تتشرب الفتنة فالله يقول: { وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ } (١١) سورة التغابن .

فأهل الثبات ليس للدجال و لا غيره طريقٌ عليهم فاللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبنا على دينك .

ε.

٢- من أسباب اتقاء فتنة الدجال أيضاً : التعوذ بالله منه لقول النبي صلى الله عليه وسلم : " تعوذوا بالله من فتنة الدجال " أخرجه مسلم . و خاصة في آخر الصلاة عن عائشة رضي الله عنها قالت : [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الصلاة " اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر و من عذاب جهنم و من فتنة المحيا و الممات و من شرّ فتنة المسيح الدجال " متفق عليه .

٣- ومنها حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف قال صلى الله عليه وسلم " من أدركه منكم - يعني الدجال - فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف " رواه مسلم . و عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال " أخرجه مسلم .

قال النووي رحمه الله : [سبب ذلك ما في أول سورة الكهف من العجائب و الآيات فمن تدبرها لم يُفتن بالدجال] فالفتية أصحاب الكهف وقعوا في فتنة أمام الملك الجبار الكافر فلجأوا إلى الله فأواهم الله ، لذلك كان من أعظم أسباب الوقاية من فتنة الدجال الفرار إلى الله و تفويض الأمر إليه و قوة التوكل عليه . { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } (٣) { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) } سورة الطلاق .

٤- من أسباب الاتقاء أيضاً الإبتعاد عنه و عدم القرب منه لأن البعد عن الفتن سلامة و عافية من شرّها فالفتن خطافة و القلوب ضعيفة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " من سمع بالدجال فليأمن بالله ، فوالله إن الرجل ليأتيه و هو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات " أخرجه أحمد و أبو داود و الحاكم .

٥- ومنها سُكنى مكة و المدينة لقوله صلى الله عليه وسلم : " يجيء الدجال فيطأ الأرض إلا مكة و المدينة " متفق عليه ، و في الصحيحين أيضاً : " على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون و لا الدجال " أي أن عليها -أبوابها و مداخلها- ملائكة يحرسونها و لكن هناك أناساً مهما استوطنوا و سكنوا مكة و المدينة و لزموا حرميها فإن ذلك لا يشفع لهم لقبح أعمالهم و ضعف إيمانهم ، فإنه يأتي المدينة فيضرب رواقه فترجف المدينة ثلاث رجفات فيخرج إليه كل منافق و منافقة .

المسألة السادسة : انتهاء أمره

جاءت الأحاديث الكثيرة الصحيحة أن عيسى عليه السلام هو الذي يقتل المسيح الدجال قال صلى الله عليه وسلم : " يقتل ابنُ مريم الدجال عند باب لُد" رواه الترمذي . (لُد: بلدة بفلسطين قرب بيت المقدس) .

إن المسلمين المجاهدين الذين صلى معهم عيسى عليه السلام صلاة الفجر ، قال لهم عيسى : " افتحوا الباب فإذا فتحوه رأوا الدجال و معه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلى و ساج ، فإذا نظر الدجال إلى عيسى ذاب كما يذوب الملح ، فينطلق هارباً إلى فلسطين ، فيدركه عيسى عند باب لُد فيقتله يطعنه بحربة معه و يبقى عليها آثار دمه حتى يتأكد الناس أنه قتله و أراحهم من شره و فتنته .

فيهزم الله اليهود و لا يبقى شيء مما خلق الله يتواقي به اليهود إلا أنطق الله ذلك الشيء لا شجر و لا حجر و لا دابة و لا حائط إلا قال : [يا عبد الله المسلم هذا يهودي تعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود]

فيهزم الله اليهود و يُقتلون جميعاً ثم يتجمع المؤمنون الناجون من فتنة الدجال حول عيسى عليه السلام و يفرحون بالتخلص من الدجال و يسعدون بالحياة مع عيسى فيمسح عن وجوههم و يحدثهم بدرجاتهم في الجنة ، و في هذا عاجل بُشرى لهم في الدنيا قبل الآخرة ...

هكذا انتهت فتنة المسيح الدجال ، اللهم إنا نعوذ بك من فتنة الدجال و نعوذ بك من الفتن ما ظهر منها و ما بطن ..

الفتنة الثانية : بعد نزول عيسى عليه السلام

فتنة يأجوج و ماجوج :

بينما المؤمنون ملتفون حول عيسى عليه السلام وهم في غاية السعادة و السرور [يوحى الله إلى عيسى أنني قد أخرجت عبداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور]

- يأجوج و ماجوج أمتان من البشر من ذرية آدم عليه السلام ، خلقتهم كخلاقة بني آدم أمّا ما ذكره بعض المؤرخين و المفسرين من روايات غريبة عن يأجوج و ماجوج

٤٢

عن أشكالهم و ألوانهم و مكانهم هذه الروايات لا تعدو أن تكون مجرد خرافات و أوهام و أساطير لا تستند على دليل صحيح .

لكنهم يتميزون عن بقية البشر بالاجتياح المروع و الكثرة الكاثرة في العدد كثرة عجيبة يملؤن الأراضي و الوديان و السهول و الجبال فمن كثرتهم يمرون على بحيرة طبرية فإذا مرّ أوائلهم يشربون ماء البحيرة كاملة حتى تجف عن آخرها !! فإذا جاء أواخرهم : قالوا : لقد كان بهذه مرة ماء .

- يخاف الناس منهم فيتركون الشوارع و الطرقات لأنه لا مقدرة لأحد على قتالهم فهم أقوى قوة بشرية على وجه الأرض بلفظ الحديث " لا يدان لأحد بقتالهم "
- هم الآن يعيشون خلف سدّ بناه ذو القرنين و كل يوم يحفرون هذا السدّ ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قالوا : ارجعوا ستحفرون غداً ، فيرجعون فيعيد الله السدّ أشدّ مما كان ، حتى إذا أراد الله أن يبعثهم يجري الله على ألسنتهم قول (إن شاء الله) (ستحفرون غداً إن شاء الله) ، فيعودون فيرون السدّ على هيئته التي تركوه عليها ، فيكملون حفرة و يخرجون .
- كيف يخرجون؟؟ قال تعالى : { حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ } (٩٦) سورة الكهف ، إذا فتح السدّ فإنهم يخرجون منه مسرعين ينصبون انصباباً و يتدفقون تدفقاً ، اجتياح مروّع من أجل التخريب و الإفساد في الأرض بصورة لم يسبق لها مثيل .
- يتحصن عيسى عليه السلام و من معه بجبل الطور ، فيحاصرهم يأجوج و مأجوج و يشتد الحصار على المؤمنين و لا يجدون ما يأكلون ، فيرغب عيسى و من معه بالدعاء فيدعون الله و يتضرعون إليه أن يخلصهم من يأجوج و مأجوج .
- يستجيب الله لهم ، ويرسل عليهم [النغف] وهو دود يخرج في أنوف الإبل و الغنم ، يسلطه الله عليهم و يهلكون جميعاً في ليلة واحدة حتى إذا أصبحوا فليس فيهم إنسانٌ حي .
- ينزل عيسى عليه السلام و المؤمنون عن جبل الطور فيجدون الأرض كلها مغطاة بجثث يأجوج و مأجوج و روائح الكريهة المنتنة ، و يطلبون من الله أن يُريحهم من هذه الجيف .

- يستجيب الله دعائهم و يُرسل عليهم طيوراً كبيرة كأسنمة البخت أي أن الطير الواحد كالجمل الكبير الضخم ، تحمل هذه الجثث فتُلقي بها حيث شاء الله .

- ثم يُرسل الله مطراً قوياً يعم الأرض كلها مدنها و قراها و بيوتها و خيامها و يغسلها و يطهرها حتى يجعلها كالزلفة أي كالمرآة فتصبح أرض نقية معقمة !
و بهذا تنتهي فتنة يأجوج و مأجوج .

زمن البركة :

يُقيم عيسى عليه السلام و المؤمنون في الأرض المقدسة و يحمدون الله على الخلاص من الدجال و جيشه و من يأجوج و مأجوج ، و يعيشون حياة هي أسعد حياة على وجه الأرض في تاريخ الأرض كله ، و هذا هو زمن البركة الذي أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم " طوبى للعيش بعد المسيح "

ومن أعمال عيسى عليه السلام :

- ١- يكسر الصليب و في هذا براءة من الصليب و تكذيب للنصارى في زعمهم الصليبية و ابطال للنصرانية .
- ٢- يقتل الخنزير و هذا تكذيب آخر للنصارى الذين يزعمون أن عيسى عليه السلام أباح لهم أكل الخنزير .
- ٣- يضع الجزية : يُلغيا لأنه لن يقبل إلا بدين الإسلام و من لم يُسلم يُقتل .
- ٤- يترك جمع الزكاة : إذ لا يوجد فقراء يأخذون زكاة أو صدقة .
- ٥- يقوم بأداء الحج و العمرة و يُهَلّ بهما من فجّ الروحاء قرب المدينة(١)

أهم مظاهر البركة في ذلك الزمن :

- ١- ترفع الشحناء و البغضاء و العداوات بين الناس .
- ٢- زوال العداوة بين الحيوانات بحيث يمشي الذئب مع الغنم كأنه كلبها يحرسها .
- ٣- تُنزع حُمة كل ذات حُمة (أي تنزع السموم) حتى يُدخل الطفل الصغير يده في فمّ الحية فلا تضره .
- ٤- تضع الحرب أوزارها و ينتشر الأمن و تملأ الأرض سلاماً كما يملأ الإناء من الماء .

(١) (رواه مسلم و أحمد ٢٤٠/٢/١٢٥٢).

٥- مُضاعفة حجم الثمار فيأمر الله الأرض (أنبتي ثمرتك و ردّي بركتك) حتى تصبح الرمانة الواحدة تكفي الفئام من الناس فإذا أكلوها استظلوا بقشرتها و كأنها الخيمة الكبيرة .

٦- البركة في اللبن ، تدرّ الأنعام من الإبل و البقر و الغنم فيبارك الله في حليبها بحيث يكفي حليب الناقة المجموعة الكبيرة من الناس ، و إذا حلبوا الشاة يكفي الفخذ من القبيلة و يُشبعهم .

٧- يُكرم الله المؤمنين بالخصب و الرفاء و البركة و يرفع عنهم كل أنواع الأذى و الخطر و ينشغل الناس بالعبادة و يُقبلون عليها و يزهدون في الدنيا و يرغبون في الآخرة فهم يعيشون و بينهم نبيّ ، و يعلمون أن أمر الساعة أصبح قريباً جداً ، كما جاء في بعض الروايات : " أن بعد نزول عيسى عليه السلام يُصبح أمر الساعة قريب جداً كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفاجئهم بولادتها ليلاً أو نهاراً " .

٨- يعيش عيسى عليه السلام ما كتب الله له أن يعيش ، و ينتهي أجله فيموت موتاً طبيعياً و يدفنه المسلمون بعد ان يُصلوا عليه .

٩- ثم يُرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو كان أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه ... (أخرجه مسلم ٢٩٤٠) .

١٠- ولا يبقى على وجه الأرض إلّا شرار الناس و سفهاؤهم عبيد الشهوات و الفواحش ، يستحوذ عليهم الشيطان ، و يتهارجون تهارج الحمير ، يسير الرجال و النساء عُراة ، يُجامع الرجل المرأة و يزني بها علانية على مرأى الناس .

نعوذ بالله من حالهم ، و نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها و ما بطن اللهم أحيينا على الإيمان و توفنا على الإيمان يارب العالمين .

وبهذا ننهي تدبرنا لقصة عيسى ابن مريم عليهما السلام .

ثالثاً: رحمته تعالى بإبراهيم عليه السلام :

٤٥

{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِنَّهُ كَانَ صِدِيقًا بَيْنَا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ ۗ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)

قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۗ لَئِن لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ ۗ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦)

قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۗ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۗ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) }

• أولاً تأمل رحمة الله بإبراهيم عليه السلام بالرغم أن والده هو صانع الأصنام و هو الذي يبيعهها و يتاجر فيها ، إلا أن الله عز وجل حمى إبراهيم عليه السلام فلم يسجد لصنم قط ، ولم يبيع صنم قط ، ولم يُشارك والده في هذه التجارة الخاسرة قط .

وهذا من رحمته إذ هداه من صِغَرِهِ و نفره من عبادة الأوثان و الكواكب ، و الله عز وجل إذا أراد أن يرحم عبده دلّه عليه.

• ثم تأمل رحمة إبراهيم عليه السلام وهو الذي رُزق قلباً مليء رحمة و شفقة و رقة و عاطفة للناس أجمع ، فكيف ستكون رحمته بأقرب الناس إليه و هو والده آزر .

بدأ دعوته به كما هو ظاهر من الآيات السابقة ، و هذا من أعظم البرّ ، أن يحرص الإنسان على هداية والديه و إن كانا عاصيين .

● أخذ يُنادي والده و يلاطفه و يرقق قلبه و يستثير عاطفة الأبوة فيه ، يا أبت يا أبت يا أبت يا أبت و كل هذا استرحام و استعطاف و تودد له وقعهُ في النفس ، يهياً قلب من أمامك فتُهدى به القلوب الشاردة و تُؤلف النفوس النافرة .

● و لكن بالرغم من الحنوّ و الملاينة و حُسن الأدب من إبراهيم عليه السلام مع والده إلا أن والده قابله بالإنكار و التقرّيع و العنف و التهديد الشديد بالرجم ، و طلب منه أن يهجره **و من ختم الله على قلبه لا تملك أنت هدايته ..**

الهداية ليست بيدك ، الهداية بيد الله هو وحده الذي يملكها ، أنت لا تملك الهداية لا لنفسك و لا لمن معك حتى و إن كان الله تعالى يهدي من يشاء ، بل قلبك الذي بين جنبيك أنت لا تملكه !!!

إذا حال الله بينك و بين قلبك فأنت عاجز لا تستطيع أن تفعل شيئاً ، فالهداية من الله و الله أعلم بقلوب عباده و أعلم بمن يستحق الهداية و بمن لا يستحقها و هو العليم الحكيم و له الحكمة البالغة .^(١)

قابل إبراهيم عليه السلام جفوة و غلظة والده برقة و حنان و لين ، و وعده بأن يستغفر له ربه الذي تعود منه الاستجابة و الحفاوة و الإكرام .

وأعلن براءته مما عليه أبوه وقومه ، وقرر أن يعتزلهم و يترك أرضهم و يُهاجر إلى ربه .. وقال : { فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۗ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) } سورة العنكبوت ، فكان أول من هاجر في سبيل الله بذل نفسه لله فهانت عليه نفسه ، و أرضه ، و أمواله ، و أهله و كل شيء ، و من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه .

ترك إبراهيم عليه السلام أرضه و قومه فعوضه الله بذرية طيبة و جعل النبوة فيهم { وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا } ، و جعل الله ذكرهم و الثناء عليهم يتردد على السنة الناس ، و لا تزال ذكراهم تتجدد في سائر العصور و كل هذا من رحمة الله التي وهبها لنبيه إبراهيم عليه السلام و ذريته .

رابعاً : رحمة الله بعباده المؤمنين في الآخرة :

سنقف مع صورتين عرضتها سورة مريم:

• الموقف الأول : المرور على الصراط ، قال الله تعالى : { وَإِنْ مِنْكُمْ إِيَّاهُ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) }

الصراط : جسرٌ ممدود على ظهر جهنم ، ممر رهيب عقبة خطيرة ، دحضٌ مزلة تنزلق فيه القدم بسرعة ، أدق من الشعر ، أحد من السيف مظلمٌ ظلمة رهيبة ، لا يتكلم عليه أحد ، دعاء الأنبياء إذا ضرب فقط اللهم سلم اللهم سلم عليه كلاليب (٢) مثل شوك السعدان (٣) مأمورة بأخذ من أمرت بأخذه فهذا يسقط ، وهذا يزحف ، وهذا يُخدش ، وهذا يُرمى ، فهو مظنة هلاك و هو من أصعب مواقف يوم الحساب ، ونحن جميعاً سيؤمر بنا لنمشي على هذا الصراط !! أعاننا الله عليه برحمته .

(١) (راجع ملزمة تدبر سورة لقمان).

(٢) الكلاليب: حديدة معطوفة الرأس يعلق فيها اللحم.

(٣) شوك السعدان: نبات ذو شوك وشوكه عظيم من كل الجهات.

قال صلى الله عليه وسلم : " فيضرب ^{٤٧} بين ظهراي جهنم ، فأكون أول من يجوز من الرسل بأتمته ولا يتكلم يومئذٍ أحدٌ إلا الرسل و كلامُ الرسل اللهم سلم سلم ، و في جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيت شوك السعدان؟ قالوا : نعم قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلمُ قدر عظيمها إلا الله ، تخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يُوبقُ بعمله و منهم من يُخردل ثم ينجو " رواه البخاري و مسلم .

- مرور الناس على الصراط على حسب أعمالهم [مرورك على قدر عملك] ستتعمل كل قواك و جوارحك و حولك لن يخدمك إلا عملك هو مركبك الوحيد على الصراط ، وهو الذي سيعبر بك { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) } سورة الإنشاق ، { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) } سورة الجاثية . ، منهم من يمرّ كلمح البصر أو كالبرق أو كأجاويد الخيل ، و منهم من تقلّ سرعته فيمشي مشياً أو يزحف زحفاً ، يُخدش ، يُرمى هؤلاء لا يعبر أحدهم إلا بعد جهد و مشقة و بعد أن يروا من الأحوال و الفزع ما رأوا ثم إذا انتهوا قالوا الحمد لله الذي نجانا منك ، و منهم من تخطفه الكلاليب و تسوقه بشدة و عنف فتلقى به في نار جهنم ، قال صلى الله عليه من حديث أبي هريرة

رضي الله عنه في صحيح مسلم : " فيمرّ أولكم كالبرق ، قال قلت بأبي أنت و أمي أيُّ شيء كمرّ البرق ؟ قال : ألم تروا إلى البرق كيف يمرُّ و يرجعُ في طرفة عين ، ثمَّ كمرّ الريح ثم كمرّ الطير و شدَّ الرجال ، تجري بهم أعمالهم و نبيكم قائم على الصراط يقول ربِّ سلم سلم حتى تعجزَ أعمالُ العباد حتى يجيَ الرجلُ فلا يستطيعُ السيرَ إلا زحفاً ، قال : و في حافتي الصراط كلاليب مُعلّقة مأمورة بأخذ من أمرتُ به فمخدوش ناج و مكدوس في النار و الذي نفسُ أبي هريرة بيده إنَّ قعر جهنم لسبعون خريفاً " (١)

(١) رواه مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان ٧٢/٣

- إذا نُصِب الصراط تأتي الأمانة و الرحم و تقومان على جنبي الصراط لماذا؟؟ تشهدُ على كل من يعبر ، فلن يجوز الصراط خائنٌ للأمانة و لا قاطع للرحم .

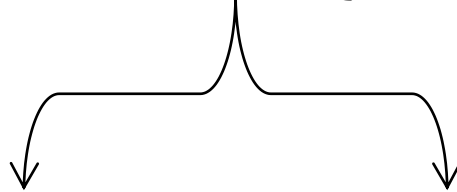
ماذا سيقول قاطع الرحم إذا مرّ على الصراط؟؟؟

و الله عز وجلّ لما خلق الرحم استأذنت ربها فأذن لها أن تتكلم فقالت : [هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال الله : " أما ترضين أن أصل من وصلك و أقطع من قطعك . (١)]

ماذا سيقول خائن الأمانة و المهمل فيها إذا مرّ على الصراط؟؟؟

و الصلاة أمانة و الوضوء أمانة ، و الصيام أمانة ، الحج أمانة ، الأولاد أمانة ، البيت أمانة ، الوظيفة أمانة ، حقوق الجار أمانة ، حقوق العمّال و الموظفين أمانة ، أسرار الناس و أسرار العمل أمانة .

جميع الحقوق أمانة سواءً



حقوق العباد الحقوق المتعلقة بالله تعالى

[العبادات]

وكل هذه الحقوق يجب أن تُحفظ و لا تُضيّع و أن تجعلها نصب عينيك فلا إيمان لمن لا أمانة له .

ماذا سيقول الظالم إذا عبر الصراط؟؟؟

و الظلم سبب لزيادة الظلمة على الصراط ، فكلما كان الإنسان ظالماً نقص نوره على الصراط و ازدادت الظلمة عليه .

فإنه تعالى يقول : { وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧) } سورة الشعراء . سيعلم أولئك الظلمة إذا وقفوا على الصراط و غمرتهم الظلمة و أخذ بقلوبهم الفرع و الضيق و الهول و الخطاطيف و الكلايب عندها سيعلمون أيُّ ظلمٍ ظلموه كم أبكوا؟ و كم قهروا

(١) صحيح الترغيب ٣ / ٦٧١

٤٩

وكم تجبروا و تسلطوا وكم أكلوا أموالاً و هضموا حقوقاً ؟ كم وكم عذبوا أناساً و ما أجمل تلك الكلمات التي أرسلت بها السيدة نفيسة بنت الحسن حفيذة سبط النبي صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي رضي الله عنهم جميعاً .

حين اشتكى لها أهل مصر من ظلم واليهم [أحمد بن طولون فأرسلت له بهذه الكلمات :

مَلَكْتُمْ فَأَسْرَتُمْ ، و قدرتم فقهرتم ، و خولتكم ففسدتكم ، وردت إليكم الأرزاق فقطعتم ، هذا و قد علمتم أن سهام القدر نافذة لا سيماً في قلوب أوجعتموها ، و أكباد جوعتموها ، و أجساد عريتموها ، فمُحال أن يموتَ المظلوم و يبقى الظالم ، اعملوا ما شئتم فإننا صابرون ، و جوروا فإننا مستجيرون ، و اظلموا فإننا إلى الله متظلمون و سيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون . [كتاب علو همة النساء - ص ٥٧]

أما المشهد الثاني الذي صورته سورة مريم في رحمة الله بعباده المؤمنين :

• { يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) }

مشهد المتقين وهم يُزفون إلى الرحمن بهيئة حسنة ، كما تفد الوفود على الملوك ، تبجيلاً لهم و تفخيماً لموكبهم ، و تُساق لهم البشائر و تقدم لهم الهدايا و الجوائز ، فهم وفود الرحمن ، و من شأن الوفود أن يُحتفى بهم و يُقابلون بالتهاني و البشائر ، و ينالون الهدايا و المكرمات فقد وفدوا على أكرم الأكرمين ، و قدموا على الرحمن إخواناً متحابين فهم في ضيافة أرحم الراحمين ..

اللهم اجعلنا منهم ووالدينا وذرياتنا يا رب العالمين ..

الو الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات .

٥٠

٥٠

ملحق بالأحاديث

التي وردت في نزول

عيسى عليه السلام

٥١

الحديث الثاني :

حديث أبي أمامة الباهلي عند أبي داود و غيره :

روى أبو داود وابن ماجة و الحاكم عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان أكثر خطبته حديثاً حدثناه عن الدجال ، و حدثناه ، و كان مما قال : " ... العربُ يومئذ قليل .. و إمامهم رجل صالح ، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح ، إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم الصبح ، فرجع ذلك الإمام ينكص ، يمشي القهقهري ، ليقدم عيسى يُصلي ، فيضع عيسى عليه السلام يده بين كتفيه ، ثم يقول له : تقدم فصل ، فإنها لك أقيمت . فيصلي بهم إمامهم ..

فإذا انصرف قال عيسى عليه السلام : افتحوا الباب.

فُيُفْتَح ، ووراءه الدجال ، و معه سبعون ألف يهودي ، كلهم ذو سيف محلى ، و ساج !

فإذا نظر إليه الدجال ذاب ، كما يذوب الملح في الماء ثم ينطلق هارباً ..

فيدركه عند باب لُدّ الشرقي فيقتله ، فيهزم الله اليهود ، فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء ، لا حجر ولا شجر و لا حائط و لا دابة – إلا الغرقدة فإنها من شجرهم لا تنطق – إلا قال : يا عبد الله المسلم : هذا يهودي فتعالِ اقتله !

فيكون عيسى ابن مريم في أمتي حكماً عادلاً ، و إماماً مقسطاً . يدق الصليب ، و يذبح الخنزير ، و يضع الجزية ، و يترك الصدقة ، فلا يُسعى على شاة ولا بعير ، و تُرفع الشحناء و التباغض ، و تنزع حُمة كل ذاتِ حُمة ، حتى يُدخل الوليد – أي الطفل الصغير – يده في (في) الحية – أي : في فمها – فلا تضره ، و تُعزُّ الوليدة الأسد فلا يضرها ، و يكون الذئب في الغنم كأنه كلبها ، و تملأ الأرض من السلم كما يملأ الإناء من الماء . و تكون الكلمة واحدة ، فلا يُعبد إلا الله ، و تضع الحرب أوزارها ، و تُسلب قريش ملكها ..

وتكون الأرض كفاثور الفضة ، تنبت نباتها بعهد آدم ، حتى يجتمع النفر على القُطف من العنب فيُشبعهم ، و يجتمع النفر على الرمانة فُثشبعهم ، و يكون الثور بكذا و كذا من المال ، و تكون الفرس بالدريهمات " .

أخرجه أبو داوود برقم (٤٣٢٢).

وانظر الأحاديث الصحيحة رقم (٣١٤).

الحديث الثالث :

ومن الأحاديث الصحيحة في نزول عيسى عليه السلام ما رواه البخاري و مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " و الذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، و يقتل الخنزير ، و يضع الحرب ، و يفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا و ما فيها .

ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم قوله تعالى : { وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۗ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا } (سورة النساء .

الحديث الرابع :

و منها ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " و الله ! لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً . فليكسرن الصليب ، و ليقتلن الخنزير ، و ليضعن الجزية ، و لتتركن القلاص فلا يُسعى عليها ، و لتذهبن الشحناء و التباغض و التحاسد ، و ليدعون إلى المال فلا يقبله أحد ... "

الحديث الخامس :

روى مسلم و الترمذي عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه قال : اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ، و نحن نتذاكر الساعة . فقال : ما تذاكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة .

قال : " إنها لن تقوم حتى تروا عشر آيات : الدخان، و الدجال ، و الدابة ، و طلوع الشمس من مغربها ، و نزول عيسى ابن مريم ، و يأجوج و مأجوج ، و ثلاث خسوف : خسف بالمشرق ، و خسف بالمغرب ، و خسف بجزيرة العرب ، و آخر ذلك نار تخرج من قبل المشرق ، تطرد الناس إلى محشرهم "

الحديث السادس :

وروى مسلم و أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " و الذي نفسي بيده ليُهلنَّ ابن مريم بفتح الروحاء حاجاً أو معتمراً ، أو ليُثنينهما "

علامات التوفيق

مُتَكَلِّمًا

لا يخفى على عاقلٍ أننا جميعاً إلى الله سائرُونَ وليس في الطريقِ واقفُ البتة، ونحن في هذا السير نتقلب بين توفيقِ الله وخذلانه مِنَّا الموفق ومِنَّا المخذول.

فما هو التوفيق وما هو الخذلان؟

التوفيق: أن يحوطك الله بعنايته ويمدك بمدده فتصيب السداد في غالب أمرك ، وتُرزق المعونة، وما شقَّ على غيرك يسهُل عليك وما اختلط على غيرك تبصره أنت لأنك موفقٌ بتوفيقِ الله لك.

الخدلان: أن يتخلى الله عنك فيكلك إلى نفسك فتضيّعها وتضيع، يعرى قلبك من البصيرة، والقلب إذا عري من البصيرة تخبطَ وأصبح قلباً حائراً متردداً وكأنه في أمرٍ مريج، لا يعرف صاحبه ما يأتي وما يذر، أيشرق أم يغرب، بمعنى أن الله يتركه من دون تسديد، بل إن الله إذا خذل العبد أشغله فيما فيه عطبه وهلاكه فيكون عبداً مصروفاً لعداوة نفسه يسعى فيما فيه شقاؤه وهلاكه وتعاسته والعياذ بالله.

وقد ذكر أهل العلم **علاماتِ التوفيق**. والهدف من ذكرها أن يزن كلُّ منا نفسه لا سيّما ونحن الآن في زمنٍ مهلةٍ تمرّ فيه الأيام مسرعة بعضها خلف بعض، يومٌ يُسلمك للآخر ويومٌ يبيلُّ مك للآخر وهكذا.... الأيام تطوى، والأعوام تتابع، والمُهلة تتناقص، ونحن في هذا السير نحتاج إلى علامات وإشارات نعرف بها صحة سيرنا وهل نحن موفقون مسددون أم نحن مخذولون والعياذ بالله فنندارك أنفسنا قبل أن تنتهي المهلة وقبل أن نصل إلى قبورنا.

واستمع لنصيحة ابن الجوزي رحمه الله وهو يقول : "الله الله في مواسم العمل، والبدار البدار قبل الفوات، استشهدوا العلم، وناقشوا الزمان^١، وناقشوا النفوس^٢، واستظهروا الزاد^٣، فكأن قد حدا الحادي^٤ فلم يفهم صوته من وقع الندم".^٥

العلامة الأولى: أن يوفق الله العبد للأعمال الصالحة على اختلاف أنواعها

قولية/ مالية/ بدنية.

بمعنى أن يجد الإنسان نفسه ميسراً للطاعات، مُنشرح الصدر لها مُقبلٌ عليها لا ضيقَ عند ه ولا كره ولا حرج ولا ثقل، فهذه من أول بشائر التوفيق

- أن يجد الإنسان أن القرآن قد خُفِّفَ عليه
- وأن التسريحَ والتحميدَ والتهليلَ والتكبيرَ يجري على لسانه جرياناً
- وأن الصلاة بنوافلها ووترها وقيامها تسئل عليه، يُحبها، يَألفها، يُكثر منها.
- وأن الصدقات والنفقات والزكوات يُخرجها ونفسه طيبة بها بل ويتمنى أن يزيد منها فيزيد الله من فضله.
- وأن الحج بكل ما فيه من مشقة وتعب وكثرة تنقلات وقلية نوم وجلس بالساعات في الباصات، فهو مُحببٌ إلى نفسه، قد تعلق به قلبه فكلما ذكره حنَّ إليه، وكل ما يتمناه أن يكون مع الحجاج في كل عام دون أن يفكر في المشقة أصلاً.
- فإذا رأى الإنسان نفسه أن الله قد شرح صدره للعبادة وهيأه لها ووفقه لاغتنام عُمره ووقته بالطاعات والصالحات بهذه الصورة فليُثِر.

فهذا هو قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله بعبده خيراً استعمله . فليل: وكيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال: يوفقه لعملٍ صالحٍ قبل الموت".^٦ وفي رواية قال: "يفتح له عملاً صالحاً بين يدي موته حتى يرضى عليه من حوله".^٧ وكل هذا من التوفيق.

^١ ناقشوا الزمان: أي سابقوه بالطاعات قبل أن ينقضي

^٢ ناقشوا النفوس: حاسبوها

^٣ استظهروا الزاد: تقووا به واتخذوه ظهيراً لكم

^٤ الحادي: نادى منادي الموت بالرحيل عن الدنيا

^٥ صيد الخاطر ١٤٤

^٦ رواه الترمذي

^٧ صحيح الجامع (٣٠٤)

ومن المعلوم بلبن الإيمان يزيد وينقص وأن النفس بين إقبال وإدبار، والنبي ﷺ يقول : "إن لكل عمل شره ولكل شره فترة فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك".^١

شره: القوة والنشاط والإنطلاق والحماس في العبادة. مأخوذة من زيادة التوهج والاشتعال مثل الشرر المتطاير من الجمر عند النفخ فيه. فأحياناً تتطلق بك نفسك في الأعمال الصالحة وتعدو بك كما تعدو الخيل فهذه هي الشره، وأحياناً تتعنت فيك وتتناقل بك وتتباطأ بك وهذا هو الفتور، لكن الموفق بتوفيق الله له الغالب على حاله القوة والنشاط وإن فتر ففتوره خفيف لا يطول.

ومن هنا تفهم لماذا كان أصدق الأسماء حارث وهمام. فحارث: من الحرث من الدأب، إنسان دؤوب، يعمل يتحرك مستمر لا ينفك عن الحركة وعن السعي. وهمام: هو الذي تتجدد عنده الهمة كل يوم وعنده همة، ليس راكداً ولا خاملاً ولا غافلاً ولا كسولاً. وهذه طبيعة المؤمن أنه صاحب همة وأنه دائماً يتحرك ويسعى ويواصل السير، ويجمع عمل الليل والنهار يربي الأعلی والأكمل والأحسن ويعلم {أن المعونة تأتي من الله على قدر المؤنة}.

وأما المخذول فهو ذاك المحبوس. والمحبوس من حبسه الله عن طاعته، وقد قال ﷺ: "لا يزال أرقام يتأخرون حتى يؤخرهم الله".^٢ فإن وجدت في نفسك حبساً فاطلب الإعانة من الله يعينك، ومتى أقبلت عليه أقبل على إصلاح شأنك وحالك.

العلامة الثانية: أن يجد الإنسان لذة للأعمال الصالحة

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ فهم في نعيم في الدنيا ونييم في البرزخ ونييم في الآخرة. فنييم الدنيا هو ما يجدونه من لذة الطاعة ولذة الأُنس والقرب من الله عز وجل ، ونييم البرزخ هو ما يرث عليهم في قبورهم من الخير والرحمة. وأما نعيم الآخرة فهو ما أخبر جلّ وعلا عنه في الحديث القدسي مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. والله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً أذاقه هذه اللذة ولم يحرمه منها.

^١ صحيح الجامع (٢١٥٢)

^٢ صحيح ابن خزيمة (١٤٧٨)

وعن مسلم بن يسار قال: "ما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة الله عز وجل".^١
 وعن إبراهيم بن أدهم أنه قال: "أعلى الدرجات أن تتقطع إلى ربك وتستأنس إليه بقلبك
 وعقلك وجوارك حتى لا ترجو إلا ربك، ولا تخاف إلا ذنبك وترسخ محبته في قلبك حتى لا
 تؤثر شيئاً عليه، فإذا كنت كذلك لم تُبالِ في برِّ كنتَ أو في بحرٍ أو في سهلٍ أو في جبل وكان
 شوقك بقاء الحبيب كشقوq الضمان إلى الماء البارد، وشوق الجائع إلى الطعام الطيب، ويكن
 ذكر الله عز وجل عندك أحلى من العسل".^٢

العلامة الثالثة: أن يوفقه الله لطلب العلم الشرعي

يحظى طالب العلم الذي سلك هذا الطريق على مراتب من العبودية:

المرتبة الأولى وهي أعظمها: أنه يكون وارثاً لنبيين عليه الصلاة والسلام "العلماء ورثة
 الأنبياء" وهم يوم القيامة أرفع من غيرهم. قال تعالى ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا
 الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه "العلماء فوق المؤمنين يوم القيامة مائة درجة وما
 بين الدرجتين مائة عام".^٣

ثانياً: بطلبه للعلم قد أتى بسبب من أسباب مضاعفة الحسنات. ومن المعلوم أن الحسنات
 بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وطلب العلم لما يترتب عليه من الخير
 والنفع المتعدي للغير. وبذلك فإن طالب العلم ينفع نفسه وغيره، ويأخذ أجره وأجر كل من
 استفاد من علمه وانتفع به فأصبح عنده مضاعفة في الأجور.

ثالثاً: أن العلم من أعظم الحسنات الماحية. فالعلم تعلمه حسنة وتعليمه حسنة والله يقول ﴿إِنَّ
 الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فطالب العلم بخروجه وتعلمه وتعليمه هو من أكثر من يتعرض
 لمحو السيئات، وهذه غنيمة كبيرة حريٌّ أن يُحرص عليها. ولك أن تتأمل بمن يستغفر له؟؟ عددٌ
 لا حصر له من المخلوقات لقوله ﷺ "إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة
 في جحرها وحتى الحوت يُصلون على معلم الخير".^٤

^١ استنشاق نسيم الأنس لابن رجب

^٢ المصدر السابق

^٣ ذكره ابن جماعة وغيره

^٤ صحيح الترغيب والترهيب (١٩/١)

رابعاً: أن طريق الجنة لطالب العلم أسهل من غيره.

قال صلى الله عليه وسلم: "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة".^١

قال ابن رجب: سلوك الطريق لالتماس العلم يُجتمَل به السلوك الحسي مثل الخطوات والمشي وحضور العلم وحلقات العلم، وقد يُجتمَل به السلوك المعنوي مثل الطرق المعنوية المؤدية إلى حصول العلم من حفظه ومدارسته وتكراره وكتابته والتفهم له . فأصبح طريق طالب العلم للجنة أسهل من غيره.

وقد سئل الإمام مالك عن رجلٍ سيُنْفَذ فيه حكم القصاص، فما أفضل عمل يعملُه؟ فقال: يطلب العلم. ومثلهُ ذلك الرجل الكبير في السن الذي أتى إلى عالمٍ يسترشدُ فقال له: أطلب العلم. فقال: وأنا في هذه السن؟ فقال له العالم: أطلب العلم ولو لم يبق في عمرك إلا ليلة واحدة.^٢ وما هذا إلا لكثرة مكاسب العلم وغنائه وأجوره وهو من أعظم بشائر التوفيق.

العلامة الرابعة: أن يوفق الله الإنسان لحب القرآن وتعلمه وتعليمه

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" وهذه خيرية خاصة يخص الله بها من يشاء من عباده ويدخل في هذه الخيرية من تعلم القرآن ومن علم القرآن ومن علم علماء يعين على فهم القرآن.

واستمع لهذه اللطائف التي قالها مُفتي المملكة سماحة الوالد الشيخ عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله في إحدى دروسه العلمية على شبكة طريق السلف، قال: (من تعلم القرآن فقد أوتي خيراً كثيراً، ومن علمه غيره فقد أوتي خيراً كثيراً، ومن أعان على تعليم القرآن ووقف مع أهل القرآن ومدارس القرآن وحلقات القرآن فهو داخلٌ في هذا الخير العظيم "خيركم من تعلم القرآن وعلمه").

فلذا لاحت لك سُبُل الخير فاسلكها أي إذا تحركت نفسك للقرآن وللحفظ فلا تتأخر ولا تتردد فإن من أقبل أقبل الله عليه وزاده توفيقاً وهمةً وبركةً، ومن أعرض زاده الله إعراضاً. وأهل

^١ رواه أحمد وأبي داود (والترمذي برقم ٢٦٤٦)
^٢ نقلاً من إحدى الدروس العلمية.

العلم يقولون إذا تحركت الهمم جاء الله بالفتح فالعلم يحتاج إلى همّة والمرء يعطى على قدر همته.

العلامة الخامسة: أن يرزقه الله القناعة

وردت في صحيح مسلم قصة سماها الشراح بقصة (جرة الذهب) ملخصها أن رجلاً اشترى عقاراً من رجل فوجد المشتري في العقار جرة مليئة بالذهب فأخذها وذهب للبائع فقال له :
إشتريت منك الأرض ولم أشتري ما فيها. رفض البائع أخذ الجرة وقال: وأنا بعثت الأرض بما فيها، فاختصما هذا يرفض أن يأخذ الجرة والآخر أيضاً يرفض أخذها فاحتكما إلى رجل بينهما فقال: ألكما ولدا؟ فقال أحدهما لي غلام وقال الآخر لي جارية، فقال: أنكح الغلام والجارية ولينفقا على أنفسهما.^١

هذه القصة تعلمك أيها القارئ الكريم أن القناعة توفيق من الله، وأن القناعة تعود بالبركة على أصحابها. وتأمل كيف كانت البداية مجرد بيعة يفترق بعدها البيعان وينتهي الأمر عند هذا الحد ولكن لأن كلاً من البائع والمشتري أمين وعفيف فقد تمت البيعة وقد التأم الشمل فإذا البيتان بيت واحد، وإذ الأسرتان أسرة واحدة.^٢

وصدق رسول الله ﷺ حين قال: "قد افلح من أسلم ورزق كفافاً وقرعه الله بما آناه".^٣

فاقنع بما عندك، وارض بما قسم الله لك واعلم أن الأمر كما قال الله عز وجل في كتابه ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. فالأرزاق مكتوبة والله اعلم بعباده يعطي هذا ويمنع هذا، يرفع هذا ويخفض هذا، يوسع على هذا ويضيق على الآخر، الله اعلم بخلقه ولا يُسأل عما يفعل سبحانه وبحمده وهو العلي الحكيم.

ثم تيقن أن ما كان لك سيأتيك على ضعفك وما لم يكن لك لن يأتيك على قوتك. يقول عليه الصلاة والسلام: "لو أن ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت".^٤ فاقنع ولا تمد بصرك ولا تنتشوف لما في أيدي الناس وتسال منهم، فإن الشريعة قد

^١ رواه مسلم- كتاب الأقضية رقم الحديث (١٧٢١)

^٢ موقع صيد الفوائد- دكتور عبد الرحمن فودة

^٣ رواه مسلم (١٠٥٤) كتاب باب الزكاة باب الكفاف والقناعة

^٤ السلسلة الصحيحة (٩٥٢)

حذرت من سؤال الناس. والنبي ﷺ يقول: "من سأل الناس تكثراً فإنما سأل جمرأً فليستقل أو ليستكثر".^١ وقال عليه الصلاة والسلام: "لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله تعالى وليس في وجهه مُرعة لحم".^٢ يُحشر يوم القيامة ووجهه ليس فيه إلا عظام تلوح فيفضح أمام الخلائق بأنه كان كثير السؤال في الدنيا. وليعلم كل من فتح على نفسه (باب سؤال الناس) أنه قد فتح على نفسه باب فقر وأن حاجته لن تُقضى لأن الله سيكله إلى الناس. قال عليه الصلاة والسلام: "من أصابته فاقةٌ فأنزلها بالناس لم تشدّ فاقته ومن أنزلها بالله فيوشك الله له برزقٍ عاجلٍ أو آجل".^٣

العلامة السادسة: أن يمن الله على العبد بالرضا

سواءً كان الرضا بشريعة الله (أوامره ونواهيه) أو الرضا بأقداره وأفعاله جل جلاله.

يقول الله عز وجل ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

الرضا مسألة بين العبد وبين ربه وليس مجرد كلمة عابرة تُقال إنما حقيقته يقينٌ يخالط القلب ويستقر فيه ويبدأ كنهه. العبد الراضي في حقيقة أمره يعرف عمّن رضي، رضي عن رب هو الخالق الذي خلق كل شيء، وهو المالك الذي بيده ملك كل شيء ولا يستطيع كائناً من كان أن يخرج عن ملكه ولا لطفة عين، وهو العليم الذي يعلم بعواقب الأمور، وهو الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه وهو اللطيف الذي يلطف بعباده ويُجري عليهم من الأقدار ما فيه مصلحتهم ومنفعتهم، وهو الرحيم الذي تصل رحمته إليهم في أي وضع وتحت أي ظرف كانوا وما من مخلوق إلا وهو يتقلب في رحمته آناء الليل والنهار، وهو الرب الذي يربي عباده فينقلهم من النقص إلى الكمال وهو الولي الذي يتولى أمر عباده وهو الحسيب الحفيظ الكافي الذي لا يضيّع عباده ولا يُسرهم ولا يخذلهم.

فلذا امتلأت النفوس بهذه المعرفة رضي العبد عن ربه وذاق طعم الإيمان، وعاش في راحة إيمانية تجلب له السعادة طوال حياته وسرعان ما تتضاءل أجزائه وتصغر لأنه أصبح على يقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه وأن قدر الله سيمضي سيمضي.

^١ رواه مسلم
^٢ متفق عليه
^٣ حسنة الألباني في صحيح الجامع

ومن أُعطي الرضا فقد كُفي والله. تأمل قول النبي ﷺ وهو يقول : "سئلُ المؤمنُ كمثُل الخامةِ من الزرعِ من حيثُ أتتها الرِّيحُ كفاتِها". شجراً المؤمن بالزرع الرطب اللين الخفيف الضعيف الذي يقلِّبه الرِّيحُ يميناً ويسرة. هذه الرِّيح هي بلايا الدنيا ومصائبها وفجائعها ونكباتها، يتقلب فيها المؤمن صعوداً وهبوطاً، يتعرض للآلام في بدنه وأهله وماله. فلذا أُعطي التفويض والتوكل والرضا فإنه يمشي مع البلاء كيفما مشى به وكلما أداره استدار معه وكلما قلَّبه يميناً وبيئرة انقلب معه. وكما قالت العرب قديماً إذا رأيت الأمر غالباً فاخضع له، أي تطامن له وهذا هو تمام الرضا.

اللهم رَضْنَا بِقَضَائِكَ وَبَارَكَ لَنَا فِي قَدْرِكَ حَتَّى لَا نَحْبَ تَعْجِيلَ مَا أَخْرَجْتَ وَلَا تَأْخِيرَ مَا عَجَّلْتَ، اللَّهُمَّ مَا أَعْطَيْتَنَا مِمَّا نَحْبُ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لَنَا فِيْمَا تُحِبُّ، وَمَا زُوِيَتْ عَنَّا مِمَّا نَحْبُ فَاجْعَلْهُ فِرَانًا لَنَا فِيْمَا تُحِبُّ

العلامة السابعة: أن يمنحه الله مكارم الأخلاق وسلامة الصدر

قال أحد السلف: إن هذه الأخلاق وهائب وأن الله إذا أحب عبده وهبه منها. فلذا وجد الإنسان من نفسه أن الله قد رزقه حسن الخلق فليعلم أن الله قد أراد به خيراً، فهو على خير وإلى خير بإذن الله.

لَمَّا سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُيْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةِ قَالَ : "تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ".^١ وليست المسألة دخول الجنة فقط بل إن من حسنت أخلاقه نال مرتبةً ومنزلةً تشرأبُ لها الأعناق وهي منزلة القرب من رسول الله ﷺ "إِنْ مِنْ أَحْبَبِكُمْ إِلَيَّ وَ أَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنِكُمْ أَخْلَاقًا".^٢

ولا يخفى عليك أن حسن الخلق أثقل ما يكون في ميزان العبد و به يحصل العبد على درجة الصائم القائم وكل هذه مكاسب وغنائم وأجور تدل على أنه مُوفِّق بتوفيق الله له . وقد كان رسولنا عليه الصلاة والسلام يستعيز بالله من سوء الخلق في دعائه "اللهم إني أعوذ بك من

^١ أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)
^٢ أخره أحمد والترمذي (٢٠١٨)

منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء". فسوء الخلق يُفسد العمل كما يُفسد الخُلُ العسل
ومن ساء خلقه فقد عذب نفسه

فكن طيباً مُطيباً في ظاهرِك وباطنِك ولسانِك وخلقِك وأنت تَرجو بهذا الطيب أن تكون ممن
يُقَال لهم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، وأن تأتيك الملائكة في لحظة إِدبار الدنيا
وإقبال الآخرة فتكون من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين. هذا الطيب يشمل طيب القلب وصفاءه
ونقاؤه وسلامته ويشمل طيب اللسان ونزاهته وعفته "وقولوا للناس حسناً"، ويشمل طيبُ الفعل
من إحسان وتواضع واعدار ومُداراة ورحمة بهم "والله يحب المحسنين" وعلى قائمة هذا الطيب
في الأفعال أن يُزق العبد الرفق، فمن حُرِمَ حظه من الرفق حُرِمَ حظه من الخير والله يُعطي
على الرفق ما لا يُعطي على العنف كما أن الله عز وجل يبغض كل جعظريٍّ جَوَاطٍ وهو الجاف
الغليظ العسير الوعر الذي يشكو وعُورَةً في أخلاقه وغلظةً وعُسرًا في تعامله. فهذا من أبغض
الناس إلى الله، وما هو إلا أثرٌ من آثار قلة التوفيق وخُذلان الله له والعياذ بالله.

العلامة الثامنة: أن يمن الله عليه فيجعله ملجأً لعباد الله

يُجري الله الخير على يديه ويصبح مفتاحاً للخير مِ غلاقاً للشر، يُفَرِّجُ همًّا، ويُنْفِيسُ كَرْبًا،
ويقضي دينًا، ويعين ملهوفًا ويقف مع مظلوم وينصح حائرًا ويُطعم جائعًا. يريد أن يدخل على
الله من هذا الباب، باب "أحب العباد إلى الله أنفعهم للناس"، "وأحب الأعمال إلى الله سرورٌ تدخله
على مسلم". وهو عبدٌ مبارك أينما حلَّ وحيثما نزل ينفع الله به. وقد أخبرنا رسول الله ﷺ
بأجره وثوابه: "طوبى لمن جعل الله الخير على يديه وويلٌ لمن جعل مفتاح الشر على يديه".
طوبى: شجرة في الجنة مسيرة مائة عام ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها. ف إذا أجرى الله
الخير على يدك فاعلم أن هذا هو نوع اصطفاء واجتباء من الله لك فلا تتملل من حوائج الناس
وكثرة طلباتهم.

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من جعل الله عز وجل حوائج الناس إليه فلم يَقم بها
أوشك الله عز وجل أن يرفعها منه إلى غيره. فبابٌ فتحه الله لك لا تُغلقه على نفسك.

العلامة التاسعة: أن يوفقه الله لترك ما لا يعنيه

فلذا وجد الإنسان من نفسه هذه الخصلة فليعلم انه موفق وأنه قد أصبح بها مؤهلاً أن يرزقه الله الحكمة وقد قال الله سبحانه وتعالى عن الحكمة ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

والحكمة تدرأ سفاً النفس، تدرأ الخفة والطيش والعجلة التي تصدر من الإنسان أحياناً . الحكمة تحل كثير من الإصطدامات والمواقف الشائكة التي تحصل في حياتنا.

أنت تفتقر للحكمة مع نفسك، ومع زوجك وأولادك ومع كل من تعاملهم أنت مُفتقرٌ لهذه الحكمة، ولن توفّق لها إلا إذا ضبطت لسانك. فرأس الحكمة الصمت وبابها اللسان، فلذا ضيّعت الباب دخل من لا تريد أن يدخل. واللسان عموماً يحتاج إلى احتياط ويحتاج إلى حراسة فهو بابٌ وعِرٌّ، وبابٌ مخوف، قلّ من ينجو منه ويسلم منه. وقد صدق أحد السلف حين قال (ما حجّ ولا رباطٌ ولا جهادٌ أشد من حبس اللسان).

العلامة العاشرة: أن يوفقه الله للتوبة

التوبة هي فتحٌ وتوفيقٌ من الله، هي ندمٌ وحياءٌ من الله، هي اعتصارُ قلب كل ما تذكر ذنبه احترق بداخله، وكلما كان صادقاً في هذا الندم وفي هذا الاحتراق كانت التوبة أكثر صدقاً وأكثر تكفيراً وتطهيراً لخطاياها.

كلنا محتاجٌ لهذه التوبة فالذنب يتردد فينا كالنفس، ومداخل الذنوب لا حصر لها، والمؤمن خلقٌ مفتناً تواباً ومن تاب تاب الله عليه. والله عز وجل إذا هدى عبده للإستغفار فقد أراد أن يغفر له.

غفر الله لي ولكم وعلّمنا بعفوه ورحمته

يا رب إنّنا بشرٌ يعرض لنا من الفتن ما يحيد بنا عن طريقك فإنّ حدنا عنك

فردنا إليك رداً جميلاً حميداً يا أرحم الراحمين

لسورة لسبأ

بين يدي السورة

- سورة مكية، نزلت بمكة قبل الهجرة.
- سميت بسورة سبأ لورود قصة سبأ فيها.
- هي إحدى خمس سور في القرآن افتتحت بالحمد (الفاتحة، الأنعام، الكهف، فاطر، سبأ)
- هذه السور مثل بقية السور المكية تعالج موضوعات العقيدة الرئيسية من الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر وقضية البعث، والنبوة، والإخبار عن الغيبات. فهذا هو الإطار العام المشترك للقرآن المكي، ويبقى أن لكل سورة شخصيتها ومعالمها ومقصودها وأسلوبها الخاص الذي تميزت به.

مقصود سورة سبأ

لو تأملت السورة لوجدتها جاءت لتقرير معنى الشكر لله تعالى وذكر جزاء الشاكرين والتحذير من الجحود وذكر عاقبة الجاحدين، حيث ذكرت نموذجين للشاكرين وهذا يتمثل في داود وسليمان عليهما السلام، ونموذجاً للجاحدين وهو يتمثل في قوم سبأ وكيف قابل كل من هذين الفريقين نعم الله عليهما.

ما علاقة الشكر والجحود بالتوفيق والخذلان؟

الشكر من أعظم أسباب التوفيق، أما الجحود فهو من أعظم أسباب الخذلان وهذا سيظهر واضحاً عند تدارسنا لقصة داود وسليمان عليهما السلام وقصة قوم سبأ.

مبحث في الشكر

* المحور الأول: ما هي منزلة الشكر في الشرع؟

الشكر توحيداً لله، ومنزلة من منازل إياك نعبد وإياك نستعين، بل هو نصف الدين نصفه شكر ونصفه صبر. قال ﷺ "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحدٍ إلا لمؤمن إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له".^١

جاء الشكر مقروناً بالعبودية ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]

وجاء مقروناً بالتقوى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]

وجاء مقروناً بالإيمان ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]

- والشكر محبوب عند الله تعالى ويرتضيه لعباده ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] أي أن الشكر يوصل العبد إلى مقام الرضى، أن يرضى الله عنك، وإذا رضي الله عنك رضيت عنك السماء، ورضيت عنك الأرض، ورضيَ عنك الناس، ورضيَ عنك كلُّ شيء.
- كما أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنّته عليهم من بين عباده فقال ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]
- وعلق الله سبحانه المزيد بالشكر ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] والمزيد منه سبحانه لا نهاية له.

* المحور الثاني: ماذا نحتاج حتى نصل إلى الشكر؟



^١ رواه مسلم (٢٩٩٩)

أولاً: التوفيق

الموفق من وفقه الله تعالى للشكر، فكل خير أصله توفيق الله للعبد، والله عز وجل يقول
﴿وقليل من عبادي الشكور﴾.

وحتى تفهم هذا التوفيق تأمل حال الثلاثة الذين أخبرنا رسول الله ﷺ عنهم كما جاء في كتاب الأنبياء في صحيح البخاري وهم (الأبرص، والأقرع، والأعمى) أراد الله أن يختبرهم ويمتحنهم فأرسل إليهم ملكاً جاء للأبرص فسأله: أي شيء أحب إليك؟ قال: لونٌ حسن وجلدٌ حسن فقد قدرني الناس "بمعنى أن الناس كانت تنفر منه وتستقذره فيجلس لوحده بلا أنيس ولا جليس" فمسح عليه فذهب عنه "أي ذهب عنه البرص" وأعطى أمنيته التي تمنّاها. ثم سأله أيضاً أيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: الإبل. فلُعطيَ ناقه عُشراء، وقال: يبارك لك فيها فنمت وتكاثرت حتى أصبح عنده وادٍ من الإبل. ثم ذهب الملك للأقرع وسأله: أيُّ شيء أحبُّ إليك؟ فقال: شعرٌ حسن ويذهب عني هذا الذي قدرني به الناس. فمسح عليه فأعطى شعراً حسناً ثم سأله أيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: البقر فأعطى بقره حاملاً وقال: يبارك لك فيها فنمت وتكاثرت حتى أصبح عنده وادٍ من البقر. ثم ذهب للأعمى وسأله نفس السؤال فتمنى أن يرد الله علي بصره فمسح عليه فرجع إليه بصره ثم سأله: أيُّ المال أحبُّ إليك؟ فقال: الغنم. فأعطاه شاةً والداً فنمت وتكاثرت. ثم جاءت ساعة الامتحان، فأرسل الملك لكل واحدٍ منهم على هيئته القديمة التي كان عليها. جاء للأبرص على هيئة رجل أبرص ورقق له الكلمات فقال: رجلٌ مسكين تقطعت بي الحبال في سفري ولا بلاغ اليوم لي إلا بالله ثم بك . أسألك بالذي أعطاك هذا اللون الحسن والجلد الحسن ، وهذا المال بغيراً أتبلغ به في سفري.

بماذا رد عليه؟

قال: الحقوق كثيرة "بمعنى أنا رجل مديون والناس يطلبونني وعليَّ حقوق لو أعطيتك سينتهي مالي". فرد عليه الملك: كأني أعرفك ألم تكن أبرصاً يقدرُك الناس، فقيراً فأغناك الله؟ فقال: لقد ورثته كابراً عن كابر "بمعنى أنا إنسان من أصلي غني وأتقلَّب في الغنى والأموال أباً عن جد ولم أذق طعم الفقر". فقال له: إن كنت كاذباً صيرك الله إلى ما كنت عليه فرجع أبرصاً !! والأقرع أيضاً قال وفعل مثل هذا الأبرص وأنكر وجدد وقال له الملك إن كنت كاذباً صيرك الله

إلى ما كنت عليه فرجع اقرعاً. أما الأعمى كان رده مختلفاً عن صاحبيه فلما سأله الملك شاةً يتبلغ بها في سفره رد عليه بقوله: لقد كنت أعمى فرد الله علي بصري، وكنت فقيراً فأغنانني الله فخذ ما شئت فوالله لا أجه ذلك اليوم بشيء أخذته الله . فقال له: امسك عليك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك.

الأبرص والأقرع خذلاً، والمخدول مصروف لعداوة نفسه، جحدا نعمة الله، نسبا النعمة لأنفسهما، لم يؤديا شكر النعمة فسلبها الله منهم. وهذا من آثار خذلان الله لهما.

أما الأعمى اعترف بنعمة الله عليه لم يجدها ولم ينسبها لنفسه فبقيت بين يديه. وهذا من توفيق الله له.

• ومن علامة الشاكر أنه يذكر حاله الأول وهذا الذي صدر من الأعمى " لقد كنت أعمى فرد الله علي بصري، وكنت فقيراً....."

تأمل كلمات النبي ﷺ في غزوة حنين لما قسم الغنائم ولم يعط الأنصار منها شيئاً، فكأنه وقع في قلوبهم شيئاً فقالوا: (لقي رسول الله قومه) أي أعطاهم وتركنا. فجمعهم النبي ﷺ وقال: "ما حديث بلغني عنكم يا معشر الأنصار ؟ والله لو شئتم لقلتم فصدقت لكم وصدقتم أتيتنا مكذباً فصدقناك، مخدولاً فنصرناك، عائلاً فواسيناك...أوجدتم عليّ يا معشر الأنصار في إعاعة من الدنيا تألفت بها أقواماً ووكلكم إلي إسلامكم والذي نفسي بيده لو لا الهجرة لكرت امرئ من الأنصار ولو سلك الناس شياً عباً وسلك الأنصار شياً عباً لسلكت مع الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ". فبكوا حتى بلوا لحاهم وهم يسمعون هذا الحب المعلن وهذا الوفاء والشكر لمعرفهم وعدم التنكر لهم، والدعاء لهم ولأولادهم فقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً، رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

• عمر رضي الله عنه وهو خليفة المسلمين وهو الذي جيئ الجيوش ودون الدواوين ، جم ع الناس وصعد المنبر. لماذا؟ ليقول للناس: "لقد كنت أرعى غنم آل فلان في قریش على قراريط ثم بكى ونزل". تذكر حاله الأول ماذا كان وماذا أصبح.

- أبو هريرة رضي الله عنه أراد أن يتمخط فأخرج منديلاً فلذا هو (من الكِتَان) فقال: بخِ بخِ يا أبا هريرة تتمخط في كِتَانٍ ثم قال: لقد رأيتني وأنا اعمل عند امرأةٍ من الأنصار على عِوَزِ كِبي (أجرة بطري).

فمن علامة الشاكر وأنه شاكر أن يذكر حاله الأول ولا يجحد نعمة الله عليه.

ثانياً: تذكرُ النعم

تذكر النعم مطلب شرعي لا بد من تحقيقه، الله عز وجل يذكرنا بنعمه الظاهرة والباطنة

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [فاطر: ٣]
- ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]
- يخاطب عيسى عليه السلام ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ [المائدة: ١١٠]

- التوحيد نعمة، والقرآن نعمة، الأعمال الصالحة نعمة، الصلاة نعمة حُرِّمَها الكثيرون وتمضي أيامهم وأعمارهم بلا صلاة وما يدري هؤلاء المساكين أنهم بتركهم للصلاة قد قطعوا صلتهم بربهم.

- الأذكار والنوافل والمحافظة عليها نعمة، العلم نعمة، مجالسة أهل العلم نعمة.

- الوالدين نعمة، الأمن والسيتر نعمة، الصحة والعافية نعمة ; أن تقوم في الصباح وأنت تحرك يديك ورجليك، لا يحملك احد ولا يكشف عورتك أحد، هذه من أجل نعم الله عليك.

والله لو حيزت لك الدنيا بما فيها ولكنك قمت مُقعداً قد شلَّت أطرافك فلن تُغني عنك الدنيا بما فيها شيئاً .

الشكر يحتاج إلى تذكر النعم فلن تكون شاكراً إلا إذا امتلكت قلباً حساساً تجاه النعم، يشهد بنعم الله عليك الصغيرة قبل الكبيرة منها . وكلما رُزقت تيقنت أن الله قد سبقك بنعمته و أنك عاجزٌ عن حصر نعم الله عليك وعاجزٌ عن توفية حق الشكر عليها ومن هنا يبدأ شكر القلب.

فأركان الشكر ثلاثة:

- أن يكون بالقلب اعترافاً وشهوداً.

-وباللسان حمداً وثناءً.

-وبالجوارح طاعةً وانقياداً.

فلذا استقر هذا الشكر بالقلب جرى على اللسان التحدث بنعمة الله بلا فخر ولا رياء ولا سمعة، والحمد والثناء على هذه النعمة.

لك الحمد يا ربي على كل نعمةً ومن جُملةِ الإنعامِ قولي لك الحمدُ

ولا حمد إلا منك تُعطيهِ نعمةً تعاليت أن يقوى على شكرك العبدُ

وتأمل حال هذا الرجل الذي شكر قلبه وفاض الحمد على لسانه، إنه أبو قلابة صاحب ابن عباس رضي الله عنه. قصته طويلة مبسوسة في كتب التراجم وهي باختصار أن هذا الرجل فقد يده ورجلاه وبصره وما بقي فيه جارحةً تتحرك، مرَّ به رجل وهو وحيدٌ في خيمته ليس عنده أحد وقد سمعه يقول "اللهم أوزعني أن أحمداً حمداً أكافئ به شكر نعمتك التي أنعمت بها عليّ وفضلتني على كثيرٍ ممن خلقت تفضيلاً". استعجب الرجل من هذا الحمد العظيم الذي يحمده هذا الرجل المشلول الموقد الذي لا حراك به فقال له: أيّ نعمةٍ من نعم الله عليك تحمده عليها؟ فقال: أحمده أن أنعم عليّ بهذا اللسان الذي اذكره به.

بهذا الحمد وبهذا الصبر وبهذا الرضا نال الرجل منزلةً عاليةً! فقد كان له ابن يخدمه ويقوم على شأنه ففقده، فطلب من الذي مرَّ عليه في خيمته أن يبحث له عن ابنه فوجده قد مات - أكلته السباع- فدخل عليه وأخبره. فلما سمع بموت ابنه حمداً فوق حمده الأول فقال: "الحمد لله الذي لم يخلق من ذريتي خلقاً يعصيه" ثم شهق شهقةً فمات. غسله الرجل وكفنه ودفنه فلما نام من ليلته رآه في منامه وهو في روضةٍ من رياض الجنة وعليه حلة من حُلل الجنة ويتلو ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ فقال: أأست بصاحبني؟ قال: بلى فقال: أنى لك هذا؟ قال: إن لله درجات لا تتال إلا بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء مع خشية الله في السر والعلن.¹

¹ رواه ابن حبان في الثقات- نقلاً عن صلاح الأمة في علو الهمة.

الشاهد من القصة: أن هذا الرجل كان صابراً حامداً لله امتلاً قلبه بالحمد وأصبح ديدنه الحمد فرفعه الله بالحمد.

والحمد عبادة من أجل العبادات، بل كما قال صلى الله عليه وسلم "ما أنعم الله على عبدٍ نعمة فحمد الله عليها إلا كان ذلك الحمد أفضل من تلك النعمة".^١ وبيّن لنا عليه الصلاة والسلام وزن هذه الكلمة بقول "والحمد لله تملأ الميزان".^٢

دخل أعرابي على رسول الله ﷺ فقال له: إني عالجتُ القرآن فلم استطعه فعلمني شيئاً يُجزئ من القرآن؟ قال: قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . فأمسكها الأعرابي بأصبعه وقال: هذا لربي. فمالي؟ قال: نقول "اللهم اغفر لي وأرحمني وعافني و ارزقني". وأحسبه قال وأهدني. وذهب الأعرابي فقال الرسول ﷺ "ذهب الأعرابي وقد ملأ يده خيراً".^٣ وقال عليه الصلاة والسلام "أفضل الدعاء الحمد لله".^٤

الحمدُ ثناءً على الله فلماذا قال عنه رسول الله أنه أفضل الدعاء؟

اتفق أهل العلم على أن أرفع وأعظم أنواع الأدعية هو الدعاء الذي يثني فيه العبد على ربه حتى لو لم يتضمن طلباً أو سؤالاً لأن القاعدة تقول "إذا انشغل العبد عن حاجته بالثناء على ربه أعطاه الله أفضل مما يُعطي السائلين".

ومن هنا كان أفضل الدعاء يوم عرفة هو قول "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير". وكان دعاء الكرب هو "لا إله إلا الله الحليم العظيم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم". كلها لا تتضمن طلباً ولا دعاءً وإنما هي تنزيه وتقديس وتمجيدٌ وثناء على الله، والله حيٌّ كريم لن يمدحه عبده ويثني عليه ويمجده ثم يخرج صفر اليدين خاوياً . فالرب كريم وكلما غلب العبدُ الثناء أعطاه الله أفضل مما يعطي السائلين، يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء سبحانه وبحمده.

^١ صحيح الجامع (٢٥٦٢)

^٢ صحيح مسلم (٢٢٣)

^٣ سنن أبي داود (٨٣٢)

^٤ صحيح الجامع (١١٠٤)

وقد افتتحت السورة بالحمد كما أسلفنا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

أثنى الله على نفسه وهو المحمود قبل أن يحمده الحامدون، محمودٌ بجميع أنواع المحامد، حميدٌ من كل الوجوه "أسماءُ حمد، وصفاته حمد، وأفعاله حمد، وأحكامه حمد، وعدله حمد، وفضله حمد، وانتقامه حمد" ولا أحد يستحق الحمد إلا هو جل جلاله المنعم المتفضل على عباده في الدنيا والآخرة.

* المحور الثالث: معنى اسم الله "الشكور"

معنى اسم "الشكور": هو الذي يجازي على المعروف بأكثر منه، ويعطي الكثير على العمل القليل، ويضاعف الأجر بلا حساب.
ومن صور شكر الله لعبده:

- أنه إذا انعقد قلبك في السير إليه جل جلاله ومشيت إليه شبراً مشى إليك ذراعاً، وإذا مشيت إليه ذراعاً مشى إليك باعاً. وفي الحديث القدسي "عبدني قم إليّ أمشي إليك، وامش إليّ أهروا إليك".¹
- ومن شكره أنه ينشرُ للعبد طيباً إحسانه فيثني عليه بين ملائكته وفي ملأه الأعلى ويطي له الشكر بين الناس.
- من شكره أنه يشكر للعبد حتى حركة قلبه ويجازيه عليها أضعاف أضعاف ما كان يتصوره. سحرة فرعون صدقوا مع الله في توبتهم وكرههم للسحر وكان الله مطلعاً على قلوبهم شاهدٌ على ما قام فيها، فشكر لهم صدقهم فثبتهم وربط على قلوبهم وأفرغ عليهم صبراً ورفع ذكرهم وأنزل فيهم قرآناً.
- من شكره لعبده أنه من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، ومن بذل له شيئاً رده عليه أضعافاً مضاعفة.
- ومن شكره لعبده أنه غفر لامرأةٍ بغيٍّ (محترفة زنا وملتزمة فيه قضت سنوات من عمرها في الزنا والبغاء) غفر لها لأنها سقت كلباً! وهل سقيا كلب تمحو هذه الكبيرة الفظيعة الشنيعة؟

¹ السلسلة الصحيحة (٢٢٨٧)

إنه الغفور الشكور الذي لا يُقال له لِمَ وكيف و لماذا؟

إنه الرب الشكور سبحانه وبحمده ويحب من عبده أن يكون شكوراً وقد قال ﷺ "لا يشكرُ اللهَ من لا يشكرُ الناسَ".^١ أي من كان طبعه كفران نعمة الناس وعدم الاعتراف بجميلهم ومعروفهم وكانت هذه هي عادته مع الناس فهي هي عادته مع الله.

لذلك إبراهيم عليه السلام لما زار ابنه إسماعيل في أرض الحجاز ولم يكن في بيته وخرجت زوجته إليه وسألها كيف أنتم؟ فأخذت تشتكي من الفقر والقلة و..... قال لها: إذا رجعت قولي له غير عتبه بابك أي طلقها. لماذا؟ لم تشكر ولم تذكر نعمة الله عليها. الوفاء عندها قليل والله يحب من عباده الأوفياء ويحب من عباده الشاكرين المعترفین بفضل الله عليهم وبفضل كل ذي فضلٍ عليهم. جعلنا الله وإياكم من الشاكرين.

وأختم بهذه الأبيات لأبي تمام:

ومن الرزِيَّةِ أن شكري صامتٌ
أرى الصنيعةَ منك ثم أسرُّها
عما فعلتَ وأنَّ برَّكَ ناطِقٌ
إني إذا لِندي الكريم لسارقٌ

أخيراً: الشكر يحتاج إلى ضراعة

صفوة الخلق كانوا يسألون الله أن يرزقهم يعينهم على الشكر " رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين".

وهاهو دعاء نبينا ﷺ الذي علّمه لمعاذ رضي الله عنه "اللهم اعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك". وأخبرنا عليه الصلاة والسلام "من قال حين يصبح اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحدٍ من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك . فلك الحمد ولك الشكر فقد أدّى شكر ليلته".^٢

^١ رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح
^٢ رواه أبو داود والنسائي

وقال ﷺ "إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكل ة فيحمدهُ عليها أو يشرب الشربةَ فيحمدهُ عليها".^١

وقال عليه الصلاة والسلام "من صنِعَ إليه معروفٌ فقال لفاعله : جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء".^٢

وقد كان أبو بكر رضي الله عنه يقول في دعائه "أسألك تمام النعمة في الأشياء كُلِّها ، والشكر لك عليها حتى ترضى وبعد الرضا، والخيرةُ في جميع ما تكونُ فيه الخيرةُ بجميع ميسورِ الأمور كُلِّها لا معسورها يا كريم".^٣

^١ رواه مسلم (٢٧٣٤)
^٢ رواه الترمذي وقال حسنٌ جيد
^٣ عدة الصابرين نقلاً عن نضرة النعيم

قصة داود وسليمان عليه ما السلام

تحدثت السورة عن نبيين كريمين من أنبياء بني إسرائيل هما داود وسليمان عليهما السلام

- أتى الله عليهما بالعلم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. [النمل: ١٥]
- جمع الله لهما بين النبوة والملك واشتهرا بالقضاء والحكمة.

المحور الأول: من هو داود عليه السلام؟

دعنا أيها القارئ الكريم نرجع مع بني إسرائيل لعهد موسى عليه السلام حيث كانوا يعيشون في أرض مصر، فاستعبدهم فرعون وأذلهم فكانوا في قمة الذل والاستضعاف والهوان . ثم نجاهم الله عزّ وجل وأغرق فرعون وجاوز بهم موسى عليه السلام البحر متوجهاً إلى الأرض المقدسة، ثم أمرهم بأمرٍ قائلاً ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١] جهزوا أنفسكم للجهاد وفتح بيت المقدس ومقاتلة القوم الجبارين فيها. هل انصاعوا لأمر نبيهم؟ لا لم ينصاعوا، بل خالفوا ورفضوا الجهاد واستهزءوا به وقالوا "فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون"

عاقبهم الله بالتيه، ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾. [المائدة: ٢٦] هكذا كان العقاب تيهً وضلالاً في الأرض مدة أربعين سنة، هم اختاروا القعود فوكلهم الله إليه فقعدوا لا يخرجون من مكان قعودهم مدة أربعين سنة، يظل أحدهم طيلة الليل يطوف باحثاً عن مخرج ليجد نفسه في الصباح قد رجع لنفس المكان الذي قد بدأ منه ! حلقة مفرغة يدور فيها بنو إسرائيل. هكذا كانت حياتهم في أرض التيه.

وهم هناك، مات هارون عليه السلام ومات موسى عليه السلام ولم يدخلوا بعد للأرض المقدسة. ثم أصبح (يوشع بن نون) فتى موسى عليه السلام الذي اصطحبه معه في رحلته

للخضر نبياً لهم، فبدأ يجهزهم ويعدهم لفتح بيت المقدس، وخرج بهم في يوم الجمعة وبدأ حربه مع القوم الجبارين.

كادت الشمس أن تغيب وهو لم ينته من حربه بعد، فنظر للشمس وقال أنتِ مأمورة وأنا مأمور " اللهم فاحبسها عليّ " فحبسها الله عليه، وهذه آية لم يعطها الله لأحدٍ غيره . أكمل قتاله وانتصر وفتح بيت المقدس ودخل ببني إسرائيل للأرض المقدسة، تتابعت الأعوام ثم مات يوشع بن نون عليه السلام وخلفه نبي آخر على بني إسرائيل، وقامت بينهم وبين القرى المجاورة لهم حروبٌ عديدة، لحقتهم فيها الهزائم ونزلت بهم المصائب، وفقدوا تابوتهم المقدس الذي كانوا يتباركون به.

ذهبوا لنبيهم يطلبون منه أن يجعل لهم ملكاً قائداً يسوسهم ويقودهم في حروبهم فأجابهم نبيهم "إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً". ولما استقر الملك لطالوت بدأ في إعداد جيشه لمقاتلة جالوت وجنوده، وجالوت هو قائد القوم الجبارين وكان قائداً مشهوراً بالرعب.

لما رأى بنو إسرائيل جالوت وجنوده ورأوا جيشاً جرّاراً لا يُدرى أوله من آخره، أصابهم الفرع والهلع والخوف وقالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده . هنا انتفضت الفئة الأكثر إيمانا والأكثر يقيناً وتوكلاً في تثبيت الفئة التي بدأت تهتز وتضطرب قائلين لهم "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين". ومن ضمن هذه الفئة رجالاً قوياً في إيمانه وعزمه وشجاعته وهو داود عليه السلام ولم يكن نبياً بعد، لم يُعِده مشهد جيش جالوت وجنوده بل إنه أقدم وانبرى وقاتل القائد العظيم جالوت "وقتل داود جالوت" وحصل النصر لبني إسرائيل ، وفرحوا بهذا النصر وأحبوا داود ومالوا إليه ثم أصبح ملكاً لهم بعد موت ملكهم طالوت.

"وآتاه الله الملك والحكمة" جمع الله له بين الملك والنبوة فكان داود عليه السلام من الملوك الأنبياء ووصف الله ملكه بقوله "وشددنا ملكه". قال القاسمي رحمه الله: أي قوينا بوفرة العدد والعدد ونفوذ السلطان وإمداده بالتأييد والنصر.¹

¹ محاسن التأويل

يُعتبر ملك داود وسليمان عليهما السلام "العهد الذهبي لبني إسرائيل" ففي هذه الحقبة من الزمان لم يخض بنو إسرائيل أية حروب ولم يُبتلوا بالهزائم والإذلال والإستعباد بل كانوا في أوج مجدهم وعزهم ورفعتهم فكان هذا هو أزهى عصورهم.

المحور الثاني: النعم التي أنعم الله بها على داود عليه السلام:

- ١ - وهبه الله صوتاً جميلاً ندياً شجياً فكان إذا سبَّح سبَّحت معه الجبال والطيور. يقول ابن عباس رضي الله عنه: "كانت الطير تسبِّح معه إذا سبَّح وكان إذا قرأ لم تبق دابة إلا استمعت لقراءته وبكت لبكائه".^١
- ٢ - خفف عليه القرآن - زبور داود- فكان يقرأه قبل أن تسرج دوابه. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال "خُفِّفَ على داود عليه السلام القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تُسرج دوابه ولا يأكل إلا من عمل يده".^٢
- ٣ - ألان الله له الحديد. قال الحسن البصري والأعمش وغيرهم: كان لا يحتاج أن يدخله في النار ولا يطرقه بمطرقة بل كان يفتله بيده مثل الخيط فتلاً.
- ٤ - علَّمه الله صناعة الدروع ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. قال قتادة : فكان أول من عمل الدروع. وعلَّمه كيف يصنعها وقال "وان اعمل سابغاتٍ وقدر في السرد" أي اجعل العمل متقناً بحيث تكون المسامير التي ستوضع في حلقات الدروع مطابقة لها تماماً ولا تجعل الحلقة واسعة فيدخل فيها المسمار فيتحرك، ولا تجعلها ضيقة فيدخل فيها فينكسر.
- ٥ - ميَّزه الله بالقوة. قال تعالى ﴿وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]. كان قوياً في بدنه، قوياً في عبادته يتعبد ربه ليلاً ونهاراً. قال عنه ﷺ "كان داود أعبدُ الناس".^٣ وعنه ﷺ "أحبُّ الصلاةِ إلى الله صلاة داود وأحبُّ الصيامِ إلى الله صيام داود كان ينام

^١ زاد المسير (١١٤٤)

^٢ رواه البخاري- أحاديث الانبياء

^٣ رواه مسلم (١١٥٩)

نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفطر إذا لاقى^١، فكان عليه السلام من أعبد البشر في زمانه.

قصة داود والخصم إذ تسوروا المحراب:

قال تعالى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ^ط قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ^ط وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ^ط وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ^ط وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ (٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)﴾ [ص: ٢١-٢٦].

فوجئ نبي الله داود وهو مُخْلِئ في محرابه يتعبد ربه بشخصين قد تسوروا المحراب - نزلا عليه من أعلى السور - فلذا هما واقفين أمامه، ففزع منهن، أخذاً يطمئنانه "لا تخف خصمان بغى بعضهما على بعض" وجئنا للتقاضي أمامك فاحكم بيننا بالحق. فبدأ أحدهما يتكلم: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجةً ولي نعجةً واحدةً فقال: أكفلنيها (أي اجعلها لي وفي ملكي وكفالتني) وعزني في الخطاب (شدد علي وأغلظ في القول).

هذه هي القضية التي عرضت على داود على لسان احد الخصمين. ومن الوهلة الأولى لسماع هذه القضية وهذه المظلمة الصريحة أصدر داود حُكْمه "لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه" شعر أن صاحب هذه النعجة مظلوم وأن أخاه معتدٍ ظالم، فاستعجل في الحكم من دون أن يسمع لحجة الخصم الثاني أو أن يترك له فرصة للبيان أو الدفاع عن نفسه وهذا ليس من العدل ولا من الإنصاف. وبمجرد ان حُكِمَ عليه السلام بهذا الحكم اختفى من أمامه الخصمان، فعلم داود أن المسألة ليست مجرد خصمين عاديين من البشر وإنما هم ملائكة والمسألة كلها كانت

^١ صحيح البخاري (٣٤١٩)

اختبار وامتحان وابتلاء "وظن داود انما فتناه" وهنا أدركته طبيعته أنه أواب كثير الأوبة والرجوع لربه "فاستغفر ربه وخرّ راکعاً وأناب".

قال القرطبي رحمه الله: ان داود سجد خاضعاً لربه، معترفاً بذنبه، تائباً من خطيئته، ف إذا سجد أحدٌ فيها فليسجد بهذه النية، فعمل الله ان يغفر له بحرمة داود الذي إتبعه".^١

قال أبو حيان: وذكر المفسرون في هذه القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء ضربنا عن ذكرها صفحاً، ونحن نعلم مطلقاً أن الأنبياء معصومون من الخطايا، اذ لو جوزنا عليهم شيئاً من ذلك لبطلت الشرائع ولم نثق بشيء مما يذكرون، فما حكى الله في كتابه يُمرُّ على ما أراد الله وما حكى القصاص مما فيه غضٌّ عن منصب النبوة طرحناه".^٢

وقد غفر الله لنبيه هذه الهفوة وسامحه وعفا عنه، وانّ له لقربةً وكرامةً بعد المغفرة وحسن مرجع في الآخرة. وقد جعله الله خليفة في الأرض وهذا مما يدل على مكانته عليه الصلاة والسلام واصطفاء الله له ويرفع من الصدور ما نُسب إليه من تلك الإسرائيليات الموضوعة الباطلة.

وقفة مع الإنابة

الإنابة هي الرجوع إلى الله، بل الإسراع في هذا الرجوع.

قال ابن القيم رحمه الله: الإنابة: الإسراع إلى مرضاة الله مع الرجوع إليه في كل وقت^٣. والعبء لا يستطيع أن يتلبس بهذه المنزلة ويُنزل قلبه في منزلة الإنابة، ويسرع في الخطى والرجوع إلا إذا ندم واعترف بزلته، وطأطأ رأسه ولسان حاله يقول (يا رب هُدىنا إليك ، أبنا إليك، رجعنا إليك، هذه نواصينا بين يديك...). بهذه الإنابة السريعة وبهذا الرجوع يتدارك العبد نفسه، ويُصلح ما فاتته، ويُؤمِّم ما هُدم من حسناته وإيمانه.

وقد أخبرنا صلى الله عليه وسلم "بأنه يدخل الجنة أقوامٌ أفئدتهم مثل أفئدة الطير"^٤ قلوبهم مثل قلوب الطير في ضعفها، في لينها، في رققتها، وفي خوفها. هذا الصنف من البشر الواحد منهم إذا

^١ تيسير المنان في قصص القرآن ٢٨٥

^٢ البحر المحيط بتصريف نقلاً عن التفسير الموضوعي

^٣ مدارج السالكين

^٤ رواه مسلم ٧٠٩

أذنب ولو ذنباً يسيراً تجده ينتفض كما ينتفض العصفور لو قطرت على جسده قطرات من الماء. هم كذلك ينتفضون لأن المنيب هو صاحب قلب رقيق كثير التأوه، كثير الأنين، إذا وقع سرعان ما يعود.

وهاهو نبينا عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه:

"ربِّ أعني ولا تُعن عليّ، وانصريني ولا تنصر عليّ، وامكر لي ولا تمكر عليّ، وأهدني ويسرّ الهدى لي، وانصريني على من بغى عليّ، ربّ اجعلني لك شكّاراً، لك ذكّاراً، لك رهّ اباً، لك مُطيعاً، إليك مُختبئاً إليك أوّاهاً مُنيباً، ربّ تقبلْ توبتي واغسلْ حوبتي وأجِبْ دعوتي، وأهدِ قلبي، وسدّدْ لساني، وثبّتْ حُجتي، وأسألُ سخيمة قلبي".¹

قصة قضاء داود عليه السلام في الغنم التي نفشت في حرث القوم

قال تعالى ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۗ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. [الأنبياء: ٧٨-٧٩]

هذه قضية رفعت لداود عليه السلام ليحكم فيها، رجلٌ عنده مزرعة مليئة بالأشجار والثمر، وآخر عنده غنم، وفي ليلة أقبلت هذه الغنم على المزرعة فأفسدت الزرع ولم يبق منه شيء والنفش لا يكون إلا بالليل، ويُقال: أنفش الراعي يعني تركها ترعى بالليل ونام عنها.

فاحتكم أصحاب المزرعة إلى داود عليه السلام. بماذا حكم؟ أن تدفع الغنم كلها لصاحب البستان تعويضاً له عن زرعه الذي أتلّف. ولكن ابنه سليمان كان حاضراً يشهد هذه القضية فابتدر أباه قائلاً: إن لي رأياً في هذه القضية وهو أن تدفع الغنم إلى صاحب البستان فينتفع منها، وأن يُعطى البستان لصاحب الغنم يزرعه ويحرثه و يتعاهده حتى إذا ستوى الزرع وحان وقت الحصاد تُسلم المزرعة إلى أصحابها ويتسلم أصحاب الغنم أغنامهم. فلما سمع داود عليه السلام هذا الرأي من ابنه قال (وُفِّقْتَ يَا بُنَيَّ) وأفتى به. وهذا هو قول الله تعالى "ففهمناها سليمان".

وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: "بينما امرأتان معهما ابناهما، إذ عدا

¹ رواه أبو داود (١٥١٠)

الذئب فأخذ ابن إحداهما، فتنازعا في الآخر، فقالت الكبرى: إنما ذهب بإبنك، وقالت الصغرى إنما ذهب بإبنك، فتحاكما إلى داود فحكم به للكبرى. فخرجتا على سليمان فقال: ائتوني بالسكين أشقه نصفين لكل واحدةٍ منكما نصفه، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها. ففضى به لها".

وفاة داود عليه السلام

عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال: "كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله احد حتى يرجع. قال: فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تتطلع إلى الدار فلذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة والله لتفضحنّ بـداود، فجاء داود فلذا الرجل قائم وسط الدار فقال له داود: من أنت؟ فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك ولا امنع من الحجاب. فقال داود: أنت والله إذن ملك الموت، مرحباً بأمر الله. ثم مكث حتى قبضت روحه، فلما غسل وكفنّ وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس فقال سليمان للطير: أظلي داود فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض، فقال سليمان للطير: اقضي جناحاً".¹

تأمل قول داود عليه السلام لملك الموت (مرحباً بأمر الله). السعيد من عباد الله من يأتيه الموت وهو قريبٌ من الله، يأتيه وقلبه معمورٌ بالله. بعض السلف لما حضرته الوفاة نظر إلى السماء وهشّ وبشّ ثم قال: لمتل هذا فليعمل العاملون، لأنه رأى البشارة، رأى ما سيقدم عليه، ففرح وسعد وهشّ وبشّ.

والسعيد من يلقي الله فيفرح... والمحروم من يلقاه فيحزن. ولا يفرح بلقاء الله إلا من أحبّ الله بصدق، وسأل الله بصدق "اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك". فعلى قدر الشوق هنا تكون لذة النظر إلى وجهه جلّ جلاله هناك.

والنظر إلى وجهه الكريم سبحانه وبحمده هي الكرامة التي لا مزيد عليها. أهل الجنة وهم في الجنة منعمون بنعيمها إذا نظروا لوجه الله تعالى نسوا حتى نعيم الجنة من لذة النظر.

¹ رواه أحمد (٢/٤١٩) - قصص القرآن ٣٩٣

اللهم إنا نسألك من فضلك ونسألك لذة النظر إلى وجهك.

لقد مات داود عليه السلام بعد أن أتم المائة وقد جاء في الحديث أن الله عز وجل بسط كفه فلذا هو كائن من ذرية ادم في كف الرحمن فلذا رجال منهم أفواههم النور، فلذا برجلٍ يعجب آدم نوره فقال يا رب من هذا؟ قال: ابنك داود، قال: يا رب فكم جعلت له من العمر؟ قال: جعلت له ستين. قال: يا رب فأنتج له من عمري حتى يكون له من العمر مائة سنة، ففعل الله ذلك، وأشهد على ذلك".^١

^١ وقد روي هذا الحديث من غير وجه- الترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه، نقلاً عن قصص القرآن لحامد بسيوني ص ٣٨٦

سليمان عليه السلام

فضائله

١ - ثناء الله عز وجل له. قال تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣٠) [ص: ٣٠].

قال ابن كثير رحمه الله : يقول الله تعالى مُخْبِرًا أَنَّهُ وَهَبَ لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ أَي نَبِيًّا كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ "وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ" أَي: فِي النُّبُوَّةِ.

وقفه:

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَهْبَهُ وَلَدًا صَالِحًا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُهُ . فَإِذَا سَأَلْتَ رَبَّكَ الذَّرِيَّةَ فَاطْلُبِ وَلَدًا صَالِحًا حَتَّى لَا يَكُونَ هَذَا الْوَلَدُ غَصَّةً فِي حَلْقِكَ، مَلْهَأَةً لَكَ مُشْغِلَةً لَكَ عَنْ أُمُورِ دِينِكَ وَدُنْيَاكَ. فَإِنَّ بَعْضَ الذَّرِيَّةِ لَا يَزِيدُونَ أَهْلِيهِمْ وَوَالِدِيهِمْ إِلَّا خَسَارًا وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَهَذَا مَا حَكَاهُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْمِهِ فَقَالَ: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٢١) [نوح: ٢١]

جمع الله له بين النبوة والمُلك كما جمع لأبيه، وزاده مُلكاً عظيماً لم ينله أحدٌ قبله ولا يناله أحدٌ بعده. قال تعالى ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَأَخْرَجْنَا مَقَرَّينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ يُعْطَرِ حِسَابٍ (٣٩) [ص: ٣٦-٣٩]

قال القرطبي: "هذا عطاؤنا" الإشارة بهذا إلى المُلك، أي: هذا المُلك عطاؤنا فأعط من شئت، أو امنع من شئت لا حساب عليك.

٢ - سمع نبي الله سليمان عليه السلام (في رحاب سورة سبأ)

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ط وَاللَّيْلُ لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ط وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ

غُدُوهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ^ط وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ^ط وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ^ط وَمَن يَزِغْ مِنْهُم عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ^ط اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا^ط وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَىٰ عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ^ط فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّتِ الْجِنُّ أَنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴿ [سبأ: ١٠-١٤]

١ - سخر الله له الريح تقطع في الغدو والرواح مسيرة شهر مما يدل على سرعتها الفائقة. وصف الله هذه الريح بأنها "تجري بأمره رخاءً حيث أصاب"، ریح مسخرة لسليمان تسير بأمره حيث شاء سريعة مأمونة الجانب ولينة. وهي آية فريدة لا يمكن للبشر مهما أوتوا من قوة أن يتمكنوا منها ويتحكموا بها.

قال ابن كثير رحمه الله "لما ترك سليمان الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله بالريح التي هي أسرع سيراً وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها".^١

ما هي قصة الخيل التي تركها سليمان؟

يقول تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نَبَعَمَ الْعَبْدُ^ط إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَّتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ^ط فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)﴾ [ص: ٣٠-٣٣]

عُرِضَ عَلَى سُلَيْمَانَ عَشِيَّةَ يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ - بَعْدَ الْعَصْرِ - الْخَيْلَ الْأَصِيلَةَ السَّرِيعَةَ الْجَرِيَّةَ الَّتِي تَقِفُ عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمٍ وَتَرْفَعُ الرَّابِعَةَ لِنَجَابَتِهَا وَخَفَتَهَا فَتَشَاغِلُ بِحُسْنِهَا وَجَرِيهَا وَمَحَبَّتِهَا عَنْ صَلَاتِهِ حَتَّىٰ غَابَتِ الشَّمْسُ وَاخْتَفَتِ عَنِ الْأَنْظَارِ.

فقال سليمان مباشرةً مُعلنًا توبته وأوبته ورجوعه السريع لربه "ردوها علي" أي ردوا عليّ الخيل التي عُرِضَتْ مِنْ قَبْلِ فِشْرَعٍ يَمْسَحُ سَوْقَهَا وَأَعْنَاقَهَا أَي يَذْبَحُهَا تَقَرُّبًا لِلَّهِ وَتَوْبَةً إِلَى اللَّهِ لِأَنَّهَا شَغَلَتْهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ.

^١ تيسير المنان في قصص القرآن- ص ٢٩٠

٢ - أسأل الله تعالى القِطر لسليمان، والقِطر هو النحاس المُذاب الذي يُستخدم في أغراض السِلم والحرب وصناعة الآلات والأسلحة والشبيد والبناء.

٣ - سُخَّرَ له الجن والشياطين تعمل بأمره، فمنهم من يستخدمه لبناء الأبنية الهائلة العجيبة ومنهم من يغوص في البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان، وآخرين من الشياطين - المردة - موتقون في الأغلال مربوطون بالقيود والسلاسل لكفرهم وتمردهم عن طاعة سليمان.^١

فُسُخِّرَ له الشياطين في بناء وتشبيد المساكن والمحاريب. **والمحراب**: كل موضع مرتفع، فقد يكون المقصود بها محاريب المساجد، وكل الأبنية المرتفعة من قصور حصينة ودور شريفة وحصون منيعة.

تماثيل: وهي التصاوير والمجسمات المعروفة وقد كانت شائعة في شريعتهم.

جفان: هي القِصاع أي القصة التي يؤكل فيها الطعام.

كالجواب: جمع جابية وهي الحياض التي يجبي فيها الماء. ويُقال: كان يقعد على القصة ألف رجل يأكلون منها.

وقدور راسيات: وهي آلة الطبخ- ما يُطبخ فيها الطعام- ثابتات لها قوائم لا يُحرّكن عن أماكنها وقيل كان يُصعد لها بدرج! فلك أن تتخيل ضخامة وسعة هذه الجفان والقدور.

٤ - سُخِّرَ له الجنود من الإنس والجن والطير، وأفهمه ما يُخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها.

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله في كتابه البداية والنهاية: أن سليمان عليه السلام مرّ بعصفور يدور حول عصفورة، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: وما يقول يا نبي الله؟ قال: يخطبها إلى نفسه ويقول: تزوجيني أسكنك أي عُرف دمشق شئت. قال سليمان عليه السلام لأن عُرف دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها أحد، ولكن كل خاطب كذاب.^٢

^١ التفسير الموضوعي، سورة ص

^٢ البداية والنهاية (٢١/٢) قصة سليمان بن داود عليهما السلام. قال رواه ابن عساکر (١١٨/١٠)

وقال عبد الرزاق عن م عمر عن الزهري أن سليمان خرج هو وأصحابه يستسقون فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقي، فقال لأصحابه: "ارجعوا فقد سقيتم. إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها".^١

آتاه الله من كل شيء، فعرف لربه فضله فقال ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۗ إِنَّ هَذَا لَهُ وَالْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (النمل: ١٦)

كان سليمان عبداً شاكراً لربه في كل أحواله وكلما جدد الله عليه النعمة زاد في شكره واعترافه بفضل الله عليه.

• لما سمع النملة وهي تحذر قومها وفهم قولها تضرع لربه قائلاً ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل: ١٩). طلب من ربه أن يلهمه شكر هذه النعمة وهذه المنّة وهذه المزيّة التي تميّز بها على غيره وأن يوفقه لشكرها وييسر عليه العمل الصالح ويدخله في عبادة الصالحين.

• لما رأى عرش بلقيس أمامه، عرش عظيم عليّ حُرّاس وهو في قصرها في اليمن، والمسافة بين اليمن وبيت المقدس ليست بالقصيرة ثم هاهو أمامه في لمح البصر [قبل أن يرتد إليك طرفك] معجزة عظيمة لم تزدّه إلا انكساراً واعترافاً وثناءً وشكراً. قال تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۗ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل: ٤٠)

هذا التسخير العظيم وهذا الملك العظيم، انس وجن وطيور ودواب وريح، آيات وعجائب وخوارق يحارّ العقل فيها وفي مفرداتها، لا يمكن أن تدرك بالأسباب أو تحصّل بالأسباب، إنما هو تقدير الملك الوهاب.

لذلك لما دعا سليمان ربه دعاه باسمه الوهاب ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ لأنه يعلم أن الله وحده هو الذي يهب ما لا يستطيع أحد أن يهبه.

^١ البداية والنهاية (٢٢/٢)

يقول ابن القيم في نونيته:

وكذلك الوهّـابُ من أسماءِه
فانظر مواهبهُ مدى الأزمانِ
أهلُ السمواتِ العُلى والأرضِ عن
تلك المواهبِ ليس ينفكانِ

وقفه مع اسم الله "الوهّاب"

ورد في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

- قال تعالى ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨)﴾
[آل عمران: ٨]

- وقال تعالى ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩)﴾ [ص: ٩]

- وقال تعالى على لسان سليمان عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥)﴾ [ص: ٣٥]

ما هو تعريف الهبة؟

هي العطية الخالية عن الأغراض والأعراض والآلام والضرر.

متى تسمى العطية هبة؟

إذا كانت خالية من العوض ⇐ يعطيك ولا ينتظر من وراء هذا العطاء عوضاً منك، بأن ترد له هذه العطية بمثلها أو بأحسن منها.

إذا كانت خالية عن الأغراض ⇐ يعطيك ولا ينتظر منك مدحاً ولا ثناءً ولا حظاً ولا رفع مذمة عنه، فيعطيك بغير عوض ولا غرض.

إذا كانت خالية عن المكروه والضرر ⇐ عطية نقية لا ضرر فيها ولا مكر ولا استدراج ولا سوء ولا ألم، إنما هي هبةٌ ورحمةٌ وبركةٌ منه وفضلٌ عليك.

ولا يستحق أحدٌ أن يُسمى وهاباً إلا إذا:

• تتوعت وهائبه وتعددت وكثرت من جهة، ومن جهة أخرى استمرت ودامت واتصلت، فعلى هذا لا واهب على الحقيقة إلا الله عز وجل فهو سبحانه الذي تعددت مواهبه، يهب ما يشاء لمن يشاء: يهب المال، والجمال، العلم، الولد، الدنيا، الملك، والمتاع والطاعة والرحمة وال مغفرة والهداية يهب كل شيء، كل ما يتعلق بأمر الدنيا والآخرة هو هبةٌ من الله ومتعلق باسمه الوهاب.

وهائبه وعطاياه تُدر على عباده بدون حصر ولا عد

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)﴾ [مريم: ٥٠]

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)﴾ [مريم: ٥٣]

- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢)﴾ [الأنبياء: ٧٢]

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۗ﴾ [الأنبياء: ٩٠]

هباتٌ متنوعة تعرفك قدر الوهاب وقيمة الهبة. فمن قرأ كلمة (وهبنا) بقلبٍ واعٍ حيٍّ وقادٍ لعرفٍ وفهم أن معناها أعطينا بلا سؤال ولا طلب.. أعطينا ووسعنا في العطاء.. أعطينا ما لا يتصور أن أحداً يعطيه، ووهبنا ما لا يستطيع أن يهبه أحدٌ لأحدٍ البتة.

• أيوب عليه السلام قال الله عنه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا﴾ [ص: ٤٣]

قال جملة المفسرين: إن أيوب أبتلي فلبث في بلائه ثلاث عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد وعافه الجليس، وأوحش منه الأنيس وانقطع عنه الناس وفقد جميع ماله وولده، ولم يبق له إلا زوجته البرّة الوفية التي كانت تخدمه وتقوم بشأنه حتى كانت تخدم الناس لتطعمه، وما زاده هذا البلاء إلا صبراً واحتساباً وحمداً.

وبعد هذا الصبر أنت الوهاب. وهبه الله أهله ومثلهم معهم، أحيا له أولاده الذين ماتوا، شفى المريض منهم، جمع عليه من تشتت منهم، أعطاه مثل ما أخذ منه وزاده عليه.

ليس ذلك فقط، بل أنزل عليه من السماء جراداً من ذهب! كما جاء في الصحيح عن أبي

هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "بينما أيوب يغتسل عريانا خرّ عليه رجل جراد من

ذهب، فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى؟ قال : بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك".^١

هذا عطاء يدلك على سعة هبة الله لعبده . طالما أن هذا العبد صبر لربه هذا الصبر وسكن له وتواضع وتضرع فإن الله سيهبه بلا حصر ولا عد ولا عوض ولا غرض . فالهبة تأتي على قدر الواهب لا على قدر الموهوب له.

فلذا اصرايك مكروه أو حلّ بك ما لا تحب، ولزمت الصبر ولم تتضجر ولم تتأفف ولم تشتكي فثق أن وهائب الله ستأتيك، وأنه على قدر لجوئك ستكون وهائب الله لك.

• تأمل في حال زكريا عليه السلام . بلغ من العمر التسعين، انتشر الشيب في شعره، وهنّ عظمه وجسده، بلغ من العمر عتياً وهو السن الذي تيبس فيه المفاصل والعظام وتجف . بالإضافة إلى عقم زوجته فهي عاقر لا تلد، كان في قمة العجز في الأسباب. وهو في خضم هذا العجز والعجز يلفه من كل جانب، حقق العبودية وأظهر لله فقره ومسكنته وذله وحاجته، انطرح بين يدي ربه.

وابن رجب رحمه الله يقول: (من طرح نفسه بباب رب الأرباب لم يحتج إلى زمنٍ طويلٍ في فتح الأبواب).^٢

أظهر لله ضعفه.... يا رب أنا ضعيف أضعف من الريشة التي تتقلب في الهواء .. أضعف من راكب في سفينة والأمواج تقلبه، ترفعه وتخفضه، فهو غرقان لا محالة .. يا رب أنا اضعف لك من هذا ومن ذاك.

إذا عرف العبد أن ينطرح بين يدي ربه بهذا الضعف وبهذا الانكسار فإن الأبواب لا شك ستفتح والوهائب ستنزل.

زكريا عليه السلام انطرح واستوهب ربه وقال ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۗ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٨) [آل عمران: ٣٨]

^١ رواه البخاري (٤٢٠/٦)
^٢ نزهة خاطر العاظر لابن رجب

يقول بعض أهل التفسير: إذا وجدت إنساناً يقول ربّ هب لي، فاعلم يقيناً أنه قد وضع أمله كله في الله ولغى الأسباب. لأن الهبة عطاء من الله بدون مقابل، فالله يُعطي بدون أسباب، ويُعطي حتى وإن عزت الأسباب. ومن عَظُم يقينه بربه لم يكِله الله إلى نفسه ولا إلى الأسباب. لم يكِله الله إلا إليه جلّ جلاله. وإذا وكلك الله إليه دبّر أمرك وقضى حاجتك وتولاك وسعدت سعادةً لا مثيل لها.

اللهم إنا نسألك صدق التوكل عليك وكمال حسن الظن بك

• علّمنا الله في كتابه أن نستوهبه. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٨) [آل عمران: ٨]

وهذه رحمة شاملة تشمل ست رحمت:

- أن يحصل في القلب نور التوحيد والإيمان، وأن يحصل في الأعضاء نور الخدمة والطاعة، وأن يحصل في الدنيا سهولة أسباب المعيشة وصلاح الحال، وأن يحصل عند الموت سهولة السكرات، وأن يحصل في القبر سهولة السؤال، وفي القيامة غفران السيئات.^١
 - استجاب الله لدعاء موسى عليه السلام فوهبه أخاه هرون نبياً، والنبوة أعلى ما يمكن أن يهبه الله لعبد في الدنيا، فهي لا تتال بعقل ولا نكاه ولا اجتهاد وإنما هي هبة الله المحضة.
 - استجاب الله لدعاء إبراهيم عليه السلام فوهبه إسحاق ويعقوب نافلة.
 - استجاب الله لسليمان عليه السلام فوهبه ملكاً عجباً عجباً يحار العقل في مفرداته وعناصره.
- فما بقي لنا نحن إلا أن نوحّد ربنا بهذا الاسم العظيم (الوهاب)، وأن نستوهب ربنا كل شيء، ولا نستعظم ولا نستكثّر في حقه شيء. فالله أكبر وأعظم من كل شيء. والله عزّ وجل لا يحب من عبده التشكُّك والتردد وأن يقول كيف؟ ومن أين؟ ولا يمكن ومستحيل... وكأن خزائن الله قد نفذت وعطاياه قد انتهت وكأن الله ليس عنده ما يُغني به خلقه.
- يحبُّ الله من عبده أن يوحدّه وأن يعلم قدرته وأن يعلم سِعة عطائه ومُلكه وكثرة وهائبه وأنه الوهاب سبحانه وبحمده.

^١ نقلًا من إحدى الدروس العلمية للدكتور محمد الديبسي في شرحه لاسم الله الوهاب

قصة قوم لسبأ

سنندارس في هذا المجلس قصة قوم سبأ. فبعد أن ذكر الله حال الشاكرين وعاقبتهم ومثل لهم داود وسليمان عليهما السلام، أعقبهم بذكر حال الجاحدين وعاقبتهم في قصة قوم سبأ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَآ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ﴾.

قال ابن كثير رحمه الله: كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها. وسبأ في الأصل هو رجل اسمه (سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان)، نسبت إليه هذه القبيلة وسُميت به البلاد. وقد جاء في مسند الإمام أحمد أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ: ما هو رجل أم امرأة أم أرض؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "بل هو رجل وُلد له عشرة فسكن اليمن منهم ستة، وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون فمذحج وكنده والأزد والأشعريون وأنمار وحمير، وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان".^١

بماذا وصف الله بلادهم؟

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَآ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّاتٍ عِن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ (١٥)﴾. [سبأ: ١٥]

كان عيشهم رغيداً، وأرضهم خصبة، وأمطارهم غزيرة. عمد ملوكهم فبنوا سداً عظيماً مُحكماً هو سد مأرب الشهير، جعلوا له عيوناً تفتح وتُغلق فيأخذون منه بقدر حاجتهم ويختزنون الباقي لوقت الشدة.

أرضهم تتدفق بالخيرات، حقول خضراء ومروج واسعة وسهول ممتدة وصفها الله بأنها (جنتان) وهذا ما يبعث على تخيل روعتها وكثرة ما فيها من الثمار حتى قيل: أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها المِكتل أو الزنبيل، وهو الذي تخترف فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرتة ونضجه واستوائه.

^١ مسند الإمام أحمد (٣١٦/١)

وذكر آخرون أنه لم يكن في بلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ولا شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم، ليوحدوه ويعبدوه.

ومما امتنَّ الله به عليهم أيضاً أن سهّل لهم طرق السفر، وجعل بينهم وبين بلاد الشام التي كانوا يقصدونها طريق ممتدة على جانبيه حدائق وبساتين وقُرى متتابعة وأماكن للاستراحة والقبولة والمبيت.

قال الحسن: بين اليمن والشام والقُرى التي بورك فيها: الشام والأردن وفلسطين كانت أربعة آلاف وسبعمئة قرية بورك فيها بالشجر والثمر والماء وحالهم رغيد ونعم الله عليهم تترى^١. وكما قال الله (بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ).

ما هو موقف قوم سبأ من هذه النعم؟

يقول الله تعالى "فأعرضوا!" فأعرضوا عن م إذا؟ أعرضوا عن شكر الله على هذه النعم، وأعرضوا عن عبادة الله ومعرفة حقه جزاء ما أنعم به عليهم. لم يصبروا على هذا النعيم وعلى هذا الرغد بل إنهم قالوا "ربنا باعد بيننا وبين أسفارنا".

بطروا وطمغوا وسئموا الراحة وملّوا النعمة كما ملّها من قبلهم بنو إسرائيل حين قالوا ﴿يَا مُوسَىٰ لَنْ نُصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلِهَا ۗ قَالَ آتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۗ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾. [البقرة: ٦١]

تضجروا من نعمة الله من المنّ والسلوى الذي كان ينزل عليهم من السماء رزقاً من عند الله بلا تعب ولا كلفة، فطلبوا الثوم والبصل والعدس ونحوه...

هذا الملل الذي حصل عند بني إسرائيل هو نفسه الملل الذي حصل عند قوم سبأ . والملل مسألة خطيرة تدخل على القلوب.

يقول عنه ابن القيم: "من الآفات الخفية أن يكون العبد في نعمة انعم الله بها عليه، واختارها له فيملّها ويطلب الانتقال منها إلى ما يزعم بجهله أنه خير له منها، وربه برحمته لا يُخرجه من

^١ تيسير المنان في قصص القرآن (٤٥٠)

تلك النعمة ويعذره بجهله وسوء اختياره لنفسه، حتى إذا ضاق ذرعاً بتلك النعمة وسخطها وتبرّم منها واستحکم ملله لها سلبه الله إياها".^١

وهذا هو الذي حصل مع قوم سبأ لما تبطّروا على نعمة الله نزعها الله منهم، وسلبها منهم ﴿فَاعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ وَبَدَّلْنَا هُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلِ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ (سبأ: ١٦)

أرسل الله عليهم سيلاً شديداً انهال عليهم فأغرق بلادهم وأحاط بجناتهم وأهلك ثمارهم وأشجارهم. هذا السيل ما خلف وراءه إلا أشجار ثمارها مره، لا تستطع م ولا تستحلى ولا تؤكل.

(ذواتي أكل خمط): أي: ثمر مر.

(وأثل): أشجار ذات فروع وعيدان لا ورق فيها ولا ثمر. شجر لا نفع فيه.

(وشيء من سدر قليل): شجر النبق فهو قلة لا تسمن ولا تغني من جوع. صارت صحراء وفيها أشجار من أشجار الصحراء، وهذا تبديل النعم بالنقم، بدّلوا فبدّل الله حالهم.

وقفه:

تفكر أيها القارئ...

ما كان الله ليكرمك بنعمة ثم يسلبك إياها إلا بسبب منك أنت

بدلت فبدّل الله لك... غيرت فغيّر الله عليك... والله يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا يَقَوْمٌ حَتَّىٰ يُعَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. [الرعد: ١١]

قوم سبأ بدّلوا، وحجّوا وتبطّروا على نعمة الله فكانوا كمن رفع السيف على نفسه أو كمن سقى نفسه سماً، وهذا هو المخذول والعياذ بالله مصروف لعداوة نفسه، يسعى في شقائها وهلاكها.

ظلموا أنفسهم حين دعوا بتلك الدعوة، فاستجاب الله لدعوتهم، وسلب النعمة منهم، باعد بين أسفارهم فصاروا يسيرون في مفاوز وقفار، وفقدوا أماكن الظل والراحة، ثم أيضاً مزقهم كل

^١ الفوائد- ص ٢٢٠

مُزَّق، تفتت قبيلتهم شذر مذر، فبدلهم الله بنعيمهم عذاباً، وبراحتهم مشقة، وبعد اجتماعهم تفرقاً وشتاتاً. وفي هذا آية للصابرين والشاكرين، وعبرة للمعتبرين وذكرى للعالمين.^١

• عرفنا من خلال المدارس لهذه القصة أن عقوبة البطر، (الحرمان). والحرمان له صورتان:

١ - إما أن يُحرم النعمة نفسها وتُزرع منه كما حصل في قوم سبأ . والنعمة إذا نزعها الله من قوم قلما تعود إليهم.

٢ - وإما أن تبقى النعمة في أيدي أصحابها لكنهم يُحرمون بركتها ونفعها.

وربما كثير من البلاءات التي تنتزل على النساء في حياتهم الزوجية يكون هذا هو سببها قلة الشكر، والبطر على نعمة الزوج وجحودها.

يقول النبي عليه الصلاة والسلام "لا ينظرُ الله تبارك وتعالى إلى امرأةٍ لا تشكر زوجها وهي لا تستغني عنه".^٢

أيُّ سعادة وأيُّ راحة وسكينة وطمأنينة تبحث عنها الزوجة في بيتها إذا كان الله لا ينظر إليها؟!

ولتستمع الزوجات أيضاً إلى الحديث الآخر الذي اخبر عنه عليه الصلاة والسلام "رأيت أكثر أهل النار النساء. قالوا: بعِ يا رسول الله؟ قال: بلغرهن. قيل: يكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير ويكفرن الإحسان، لو أحسنتَ إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيتُ منك خيراً قط".^٣ وهذا والعياذ بالله جحود صريح.

يُذكر أن أحد الخلفاء العباسيين تمتت زوجته ذات يوم أن تمشي على الطين وهي حافية فأمر أن يُعمل لها خلطة من طين مخصوص .. بأن يُمزج المسك والعنبر والزعفران وشيء من نشارة الخشب لتمشي عليها زوجة الخليفة!

^١ تيسير المثنان في قصص القرآن- أحمد فريد ص ٤٤٧

^٢ أخرجه النسائي

^٣ رواه البخاري ومسلم

أيّ إكرامٍ هذا من زوجٍ لزوجته؟! ولكن تمضي الأيام ويحصل بينها وبين الخليفة ما يحصل بين الأزواج فنقول تلك الكلمة (ما رأيت منك خيراً قط) فردّ عليه: ولا يوم الطين؟!^١

• وهذه وقفٌ للنساء خاصةً: المسألة تحتاج إلى عدلٍ وإنصافٍ، الله عز وجل خاطبنا بالعدل وأمرنا بالعدل، وهو يحب العدل سبحانه وبحمده.

- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]

- ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۗ اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]

تأملن هذا الربط العجيب بين العدل والتقوى، لانه لا يعدل إلا من كان تقياً. المتقي شخص مُلجَمٌ نفسه، ومُلجَمٌ لسانه، ومُلجَمٌ غضبه. لا يستطيع أن يتكلم بكل ما يريد أو أن يتكلم كما يتكلم أولئك الذين أصبحت أسنتهم حبلٌ مرخيٌّ في يد الشيطان يصرفهم كيفما يشاء فيتكلمون في كل شيء وبكل شيء.

تأمل دعاء النبي ﷺ وهو يسأل ربه "وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب". وهذا عزيزٌ جداً كما يقول ابن رجب "قليلٌ من يوفَّق لهذا العدل، لأنه الغضب يجعل الإنسان يقول غير الحق ويفعل غير العدل وهنا تتفَلَّت التقوى من أصحابها، فالتقوى أحياناً تكون مريضة وأحياناً تكون غائبة وأحياناً أخرى تموت هذه التقوى في قلوب أصحابها.

ما تراه من الكلام ونشر العورات والسوءات والمثالب والنقائص والذم الذي يحصل بين الزوجين إذا حصل بينهما خلاف ما هو إلا صورة واضحة للتقوى التي فُقدت وغابت وماتت. لذلك تكرر لفظ التقوى في سورة الطلاق كثيراً حتى يتأكد لدى الجميع بأن الأمر يحتاج إلى تقوى ولن يعدل إلا من كان تقياً.

ونحن حين نوصي أنفسنا والزوجات بالعدل والإنصاف وعدم الجحود، فالمقصود الأساسي أن ننجو من مُساءلة الله لنا في الآخرة وتخف المظالم والتبعات عنا، فإن أثقل ما يحمله المرء على عاتقه يوم القيامة ذنوبه وخاصة مظالم العباد.

^١ نقلًا عن مجلس علمي للمحدث الشيخ أبو إسحاق الحويني حفظه الله ومتعنا بعلمه

فهذا هو الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فلا بد من الاستيفاء للحقوق وهذه المظالم لن تذهب عند الله هباءً منثوراً. وبقدر المظلمة سيأخذ المظلوم من ظالمه. وحتى لا تصيبنا العقوبة التي وردت في الحديثين السابقين.

وأخيراً أذكر أخواتي حتى يبارك الله لك بالنعم التي بين يديك ويزيدها عليك ولا يحرم لك نفعها فلا بد من الشكر، فإن البركات تحل عند الشاكر للنعم لا عند الجاحد لها.

ومما يعينك على الشكر أن تقبلي من أمامك كما هو فالقبول الحسن يورث تفاعلاً حسناً. إذا تقبلت من أمامك واقتنعت أن هذا هو رزقك الذي كتبه الله لك. هذا القبول الذي وقع في القلب حتماً ولا بد سيظهر على لسانك وتصرفاتك وتفكيرك وجميع جوارحك.

إقبل الناس كما هم، اقبلهم على علاتهم هذا معنى مُستنبط من آية في كتاب الله ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ولنعلم جميعاً أننا إن سدنا أبواب الرضا بداخلنا فقد اشترينا الهم بأنفسنا.. فليرض الإنسان بما كتب الله له.

من مشاهد القيامة

من أهم المواضيع التي تحدثت عنها سورة سبأ التأكيد على الإيمان باليوم الآخر وذكرت بعض المشاهد فيه كالمواجهات والحوارات الصريحة بين الأتباع والمتبوعين والمستكبرين والمستضعفين يتبادلون فيه اللوم والعتاب.

قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ۗ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ۗ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۗ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)﴾ [سبأ: ٣١-٣٣]

• موقف الفرع الذي يروعهم والهول الذي سيغشاهم في ذلك اليوم ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا فُوتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٥١)﴾ [سبأ: ٥١]. مهما شرّقوا أو غربّوا فهم من الله قريب . ق ال الألوسي: (فلا فوت) فلا يفوتون الله عز وجل بهرب أو نحوه (وأخذوا من مكان قريب) من الموقف إلى النار. والمراد بذكر قرب المكان سرعة نزول العذاب بهم والاستهانة بهم وبهلاكهم، وإلا فلا قرب ولا بُعد بالنسبة لله عز وجل.^١

• ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَإِنَّا لَلْهَمُّ التَّنَافُسُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢)﴾ [سبأ: ٥٢] قالوها بعد إنقضاء الزمان وفوات الأوان وإنطواء الصحف، كيف لهم أن يتناولوا الإيمان في الآخرة وهم قد تركوه في الدنيا فكيف لهم بالرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا، ومنه قول الشاعر:

تمنى أن تؤوبَ إليَّ مي^٢ وليس إلى تناوشها سبيل^٢

^١ روح المعاني للألوسي- نقلًا عن موسوعة التفسير الموضوعي- سورة سبأ
^٢ التفسير الموضوعي- سورة سبأ

• ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] حِيلَ بينهم وبين الإيمان، حِيلَ بينهم وبين ما يشتهون من ملذات الدنيا والأهل والأولاد والعشيرة، حِيلَ بينهم وبين التوبة، حِيلَ بينهم وبين ما يشتهونه من الرجوع إلى الدنيا وتوفها وحرمانهم من نعيم الجنة وملذاتها.

وقفه في رحاب اليوم الآخر:

مَنْ رَحِمَهُ اللهُ ذَلَّوْهُ بِالْآخِرَةِ، وَمَنْ ذَكَرَهُ بِالْآخِرَةِ أَهْمُهُ الْعِبَادَةُ وَمِنْ أَهْمِهِ الْعِبَادَةُ فَقَدْ هَدَاهُ وَمِنْ هِدَاةٍ فَقَدْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ.

إذ أن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان الستة، وعلى قدر الإيمان به يؤثر هذا على عبادة الإنسان وسلوكه وأخلاقه، يعرف الإنسان كيف يتعامل مع وقته ومع زمانه وليله ونهاره، يجعله ينظر لليالي والأيام على أنها مطيئة للأعمال وأنه لا بد من الوفود على الله. كل العباد سيفدون على الله وكلُّ أحدٍ سيجد ما قدّم بين يديه.

سنتكم عن هذا اليوم بطريقة علمية مختصرة^١

سنبدأ من النفخة الأولى نفخة الفزع والتي تعقبها نفخة الصعق ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (٦٨) [الزمر: ٦٨]

نفخة الفزع لا يسمعها أحد إلا وأصغى ليتها ورفع ليتها، والليث هو صفحة العنق . يعني لا يسمعها أحد إلا ورفع رأسه وعنقه يستمع لهذا الصوت القادم من السماء.

ثم تعقبها نفخة الصعق وهذه النفخة يموت منها كل من سمعها . بعد نفخة الصعق تتغير معالم الأرض، تتسف الجبال ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَبْقَىٰ فِيهَا جَبَلًا وَلَا أُمَّةٌ (١٠٧)﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، تسجر البحار، تنفطر السماء وتتشقق، تتساقط النجوم وتتكدر، ثم يطوي ربنا السمعاء بيمينه وينادي:

أنا الملك، أنا الملك، أنا الملك ثم يقول لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحد... لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحد... لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحد... ثم يجيب بنفسه جلّ جلاله ﴿الله الواحد القهار﴾

^١ أصل هذا المبحث محاضرة لفضيلة عبد الله بن سعد أبا حسين في موقع البث الإسلامي- منازل الآخرة في القرآن والسنة.

• ثم يأمر الله السماء (فتمطر أربعين)، هكذا جاء في الرواية. فتظل تمطر فتتبت أجسامنا من جديد. كيف تتبت؟ تتبت مما بقي منها وهو (عَجَبُ الذَّنْبِ). تتبت شيئاً فشيئاً كما تتبت النباتات، (كما تتبت البقل وهي النباتات المفترشة على الأرض التي لا ساق لها ولا فروع)، حتى تكتمل الأجساد. إذا تكاملت تبقى أجساد بلا روح.

ثم يُنفخ النفخة الثانية وهي (نفخة البعث). هنا تنطلق الأرواح للأجساد، كل روح تذهب إلى جسدها الذي كانت تسكنه في الدنيا دون أن تخطئه بأمر الله فتتهتز الأجساد بالأرواح من جديد فيقوم الناس ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١)﴾ [يس:٥١].

• يخرجون من قبورهم مسرعين مضطربين كالفراش المبتوث يموج بعضهم في بعض . يخرجون حفاة عراة غرلاً (غير مختونين) كما بدأنا أول خلق نعيده . من شدة الهول لا ينظر أحدٌ لعورة أحد. تقول عائشة رضي الله عنها: "يا رسول الله النساء مع الرجال حفاة؟ قال: يا عائشة الأمر أشد من ذلك". فالأمر مهول ومفزع. ثم يبدأ الحشر.

صفة الحشر:

﴿قَتُولَٰ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نَّكِرٍ (٦) خَشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧)﴾ [القمر:٦-٧]

ينطلقون لأرض المحشر مُهْطِعِينَ مُسْرِعِينَ إلى داعيهم كأنهم جرادٌ منتشر، مع كل نفسٍ سائقٍ وشهيد، ملك يسوقها إلى أرض المحشر وملك يشهد عليها بأعمالها.

أرض المحشر أرض تبسط كما يبسط الجلد، ليس عليها بناء ولا جبال ولا أشجار ولا إنخفاض ولا إرتفاع، بل هي مستوية تماماً.

المجرمون ينطلقون لأرض المحشر كما قال الله عنهم ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢)﴾ [طه:١٠٢]، من شدة الأهوال تزرق عيونهم، ﴿وَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦)﴾ [مريم:٨٦]، نسوقهم سوقاً شديداً عطاشاً مُثْشاةً.

أما المؤمنون أهل الإيمان يُقدمون على ربهم ركبانا لا يمشون، ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥)﴾ [مريم:٨٥]. هذه نجائب وركائب تُقرب لهم أَعْدَاهُ اللهُ لَهُمْ.

أرأيتم ملك من ملوك الدنيا إذا جاءه زوّارُه ماذا يُرسل لهم من المراكب لِهستقبلهم ويكرمهم؟ لا شك أنه سيُرسل لهم أفخم المراكب وأحسنها.

فما ظنكم برب العالمين؟ بالملك الكريم؟ وسيُقدّم عليه أهل التوحيد، وأهل التقوى وأهل الإخلاص، من تعبوا في هذه الدنيا وصلّوا وصاموا وجاهدوا في أنفسهم وعاشوا في غربّة ومكابدةٍ ماذا سيُعدُّ لهم من الركائب؟ وكيف سيفدون على ربهم؟

زمان الحشر:

يُحشر الناس في يومٍ طويل جداً مقداره خمسين ألف سنة . يتفاوت طول هذا اليوم على أهل الإيمان. منهم من يُخفّف عليه فيكون كما بين الظهر والعصر، ومنهم من يطول عليه حتى يقضي الله بين العباد.

كما جاء أن تارك الزكاة يُعذب بذهبه وفضته فيُحْمى عليها في نار جهنم ويكوى بها حتى يقضي الله بين العباد.

من لم يؤدّ زكاة الإبل، تطأه بأخفافها وتعضّه بأفواها حتى يقضي الله بين العباد . وكذلك صاحب البقر وصاحب الغنم.. فمرور زمان ذلك اليوم يختلف باختلاف الإيمان.

ويحصل في يوم الحشر أمور:

١ - تكسى الخلائق وأولهم إبراهيم عليه السلام.

٢ - تدنو الشمس من الناس بمقدار ميل ويعرق الناس ويتفاوتون في عرقهم، هذا عرقه كثير وهذا قليل والكل يقف بجانب بعضه لكن لكل واحدٍ عرقٌ يخصه بحسب ما قدّم، منهم من يبلغ عند كعبيه، ومنهم إلى حقويه الحقو (معقد الإزار)، ومنهم من يصل عرقه إلى شحمة أذنه، ومنهم من يجمع العرق إجمالاً والعياذ بالله. وهناك من يُظلم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله. نسأل الله من فضله.

٣ - سيؤتى بنار جهنم إلى أرض المحشر وهي عظيمة مرعبة يحطّم بعضها بعضاً، لها عينان، ولها عنق وتتكلم، لها سبعون ألف زمام، والزمام هو ما يُشدّ به رؤوس الإبل مثل الحبل، مع كل زمام سبعون ألف ملك . إذا جيء بالنار بهذه الصورة المرعبة المفزعة المخيفة ورآها

الناس أمامهم، عندها يحصل الفرار، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه ، يرى القريب قريبه، والإبن أبیه، و الأم ابناها، كله يفر ويهرب ولا يسأل حميم حميماً، لكل امرئ شأن يُعنيه ويقول نفسي نفسي.

٤ - وما يحصل أيضاً بتوّل الملائكة ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْعَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ (٢٥) [الفرقان: ٢٥]. تنتزل الملائكة وتحيط بالخلائق، ثم يُنزل عرش الجبار الملك جل جلاله ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) ﴿ [الحاقة: ١٧-١٨].

يتجلى ربنا جلّ وعلا للخلائق في أرض المحشر ، والتجلي هو الظهور والإنكشاف. وبعد هذا التجلي تشرق الأرض بنور ربها . يُصعق جميع أهل الموقف من هذا التجلي ويغشى عليهم ثم يستفيقون مرة أخرى. فإذا أفاق أهل الموقف يؤتى بكتاب الأعمال ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٦٩) [الزمر: ٦٩].

٥ - يبدأ الحساب وهو نوعان:

أ/ الحساب اليسير (العرض) وهو أن يُقرّر الله العبد بذنوبه. يُدني الله عبده المؤمن فيقول: عبدي فعلت كذا وكذا في يوم كذا وكذا، عبدي أتعرف ذنب كذا؟ والعبد يعترف ويقرّ نعم يا رب، نعم يا رب، ثم يقول له: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يُعطى كتابه بيمينه، فينطلق إلى أرض المحشر سعيداً مسروراً ينادي فيهم ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ﴾ (١٩) إِيَّيْ ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَرَبًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴿ [الحاقة: ١٩-٢٤].

ب/ الحساب العسير والعياذ بالله . ومناقشة وجدال وسؤال ومقاصّة، ومن نوقش

الحساب فقد عذب. يختم الله على أفواه الكفار ويتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٠) وَقَالُوا لِيَجْلُدِ اللَّهُمَّ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴿ [فصلت : ٢٠-٢١]، ثم يُعطى كتابه بشماله، فيقول ﴿وَأَمَّا مَنْ

أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتْ
الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ (٢٩) ﴿ [الحاقة: ٢٥-٢٩].

٦- وبعد هذا العرض تنصب الموازين ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ويوزن العمل والعامل وصحيفة العمل وأشد ما يتقل به الميزان هو التوحيد، يؤتى برجلٍ
عليه تسع وتسعون سجلاً من الخطايا والذنوب وكل سجل مد البصر، ثم يُقال له أنتأثر شيء
من هذه الذنوب؟ فيقول: لا يا رب. فيقال له: أظلمك كتبتي؟ فيقول: لا يا رب. ثم يُقال له :
ألك حسنة؟ فيقول: لا يا رب. فتُخرج له بطاقة فيقول: وما تفعل بطاقة أمام كل هذه
السجلات. فيقال لا ظلم اليوم. هذه البطاقة مكتوب عليها (لا اله إلا الله)، كان معه كلمة
التوحيد. أتى بالتوحيد، فرجح بالتوحيد، ونقل بالتوحيد، ونجا بالتوحيد.

بعد الوزن يعرف كل إنسان مصيره، وينقسم الناس إلى طوائف وأزواج وتقام الأولوية : لواء
محمد ﷺ / لواء إبراهيم عليه السلام/ لواء موسى عليه السلام.... وهكذا. ثم يُجمع الناس مع
أزواجهم، الظلمة مع الظلمة، الكفرة مع الكفرة، الزناة مع الزناة، أهل الخمر مع أهل الخمر .
﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧)﴾ [التكوير: ٧].

ثم يضرب الله عز وجلّ الظلمة على أهل الموقف وهي ظلمة شديدة عظيمة تكون قبل
الصراط، فيقول الله عز وجلّ فلتتبع كل أمةٍ معبودها . فتبدأ الأمم الكافرة تتهاوى في النار .
﴿فَأُورِدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَورُودُ (٩٨)﴾ [هود: ٩٨].

٧- في هذا الموقف يُعرف المؤمنون والمنافقون . عن ابن عباس رضي الله عنه قال : "بينما
الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، فلما رأى المنافقون
المؤمنين قد انطلقوا، اتبعوهم فأظلم الله على المنافقين، ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ
لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ
لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣)﴾ [الحديد: ١٣]. فيبدأ توزيع الأنوار
وتقسيمها حتى يمرروا على الصراط ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحدي: ١٢]، وهذا النور على قدر الأعمال. منهم من يُعطى نوره مثل الجبل بيد

يديه، ومنهم فوق ذلك، ومنهم من يكون نوره مثل النخلة بيمينه ومنهم من هو دون ذلك، حتى يكون آخر من يُعطى نوره على قدر إبهام قدمه يضيء مرة ويُطفأ مرة، فإذا أضاء قَدُم قدمه وإذا أطفئ قام. والعجيب في هذا النور أنه لا يمكن لأحد أن يشارك غيره في نوره حتى لو كان واقفاً بجانبه لأنه نور خاص بصاحبه يكون على قدر عمله، ولا يظلم ربُّك أحداً.

٨- يُنصب الصراط ويبدأ المرور عليه، والشعار عليه (اللهم سلم، اللهم سلم). وصِفَةُ الصراط أحدّ من السيف وأدقّ من الشعر، عليه كلاليب مثل شوك السعدان تأخذ من أمرت بأخذه . وتختلف سرعة السير على الصراط بقدر الأعمال . منهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم كأجاويد الخيل، ومنهم من يمشي، ومن يزحف، ومن يُخدش وتعلق يده وتعلق رجله، ومنهم من تخطفه الكلاليب فتُلقي به في نار جهنم. ومن أسرع هنا أسرع هناك، ومن أبطأ هنا أبطأ هناك.

يقول ابن كثير رحمه الله: "من سابق في هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة. فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تُدين تُدان".

٩- تأتي القنطرة، والذي يعبر الصراط يُعتبر ناجياً من النار تماماً فلق يدخلها. والقنطرة مثل الجسر الذي يكون على ماء أو نهر، يُحبس فيها المؤمنون لاقتصاص مظالم خاصة بين أهل الجنة وهذا غير القصاص الأول، لأن الإنسان وإن اقتص له ممن اعتدى عليه يبقى في قلبه شيء من الغل والحقد، فيُحبس أهل الجنة في هذه القنطرة من أجل أن يذهب الغل والحقد والبغضاء التي في القلوب، أي أن هذه القنطرة هي للتنقية والتصفية والتطهير (ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين). لن يدخل الجنة إلا من كان طيباً مُطيباً صافياً نقياً.

١٠- ثم تُقرب الجنة إلى داخلها وأزلفت الجنة للمتقين، وينطلق نبينا صلى الله عليه وسلم ويطرق الباب فيقول خازن الجنة: من؟ فيقول: محمد. فيقول الخازن: نعم، لك أمرت أن

أفتح. فيدخل ويدخل الأنبياء من بعده، ثم تدخل أمته وهي أول من يدخل الجنة إكراماً له عليه الصلاة والسلام.

يدخلون فإذا أبواب الجنة مفتوحة مُسرعة تنتظرهم فلا تغلق أبداً، فالكريم لا يُغلق أبواب بيته. ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣]. يجدون ريحها وروحها وريحانها مسيرة سبعمائة عام.

صفة دخولهم أنهم يدخلون مُسكين بأيدي بعضهم بعضاً بجانب بعضهم، صفاً واحداً وجوههم كالبدر من جمالها وبريقها ولمعانها. قال صلى الله عليه وسلم: "ليدخلنَّ الجنة من أمتي سبعون ألفاً أو سبعمائة ألف لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم وجوههم كالبدر".

وحق لهم، فلؤل من يطأ الجنة هم، وأول من يشم رائحتها هم، أول من يراها هم، الذين باعوا أنفسهم لله واشتراها الله منهم وجاء وقت قبض الثمن، والثمن هو الجنة. ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

جعلني الله وإياكم من أهل الجنة ومن أول زمرة تدخل الجنة

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة ونعوذ بك سخطك من النار

والحمد لله رب العالمين

انتهت كتابته يوم السبت

غرة محرم ١٤٣٣ هـ -

أم عبد الرحمن